فرقُ ما بين مطلوب النحو ومقتضى تحليل النص القرآني وتفسيره

مثَلٌ من التطبيق على سورة الإنسان

أ.د. عبد السلام السيد حامد (*)

ملخص:

في إطار المشكل المعرفي المنهجي، المتعلق بعلاقة النحو العربي بالنص ودراساته، خاصة ما يُسمّى بنحو النص، يأتي هذا البحث محاولًا تحقيق هدفين: الأول تقديم أنموذج عملي لبيان ما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين النحو العربي والنص القرآني، من خلال التطبيق على سورة الإنسان وفق رؤية معرفية نصية، والثاني: الإسهام في حل إشكال التعارض بين ما يتطلبه تفسير النص القرآني من الاقتصاد في الإعراب والبعد عن الصنعة النحوية وتعقيدها، والرأي القائل بأن تعدد وجوه الإعراب ظاهرة طبيعية في القرآن –وغيره بالطبع من النصوص البليغة– بل إنها من أمارات ثراء معناه وغناه ومن دلائل إعجازه؛ ومن أجل ذلك تناولنا مبحثين رئيسين: الأول: "مطلوب النحو في النص"، وقد تم هذا من خلال تحليل إحدى عشرة مسألة مختلفة في سورة الإنسان والتعليقِ عليها. والمبحث الثاني: "مقتضى تحليل نص السورة وتفسيرها"، الذي اشتمل على تقسيم آيات السورة بحسب مضمونها ومحتواها، إلى خمسة أقسام ودراسة مناسبتها، وتلا هذا النظر في ظواهر متفرقة خاصة بمقتضى التفسير وتحليل الأسلوب والخطاب.

ومن أهم نتائج البحث في مطلوب النحو أنه يشمل –إلى جانب إعراب المُشكل– الاستشهاد والاحتجاج للاستعمال أوْ له، إضافة إلى توجيه القراءات التي لا يكفي في المتواتر منها –كما نرى– أن ننظر إلى إعرابها، بل من المهم أيضًا محاولة تفسير اختلافها دلاليًّا، وبيان بلاغتها وجمالها وعدم تعارضها. ومن أهم نتائج المبحث الثاني تأكيد أن المناسبة في القرآن الكريم مفهوم كلي للاتساق والانسجام، يشمل سياق السورة الداخلي والخارجي، وكذلك الوصول إلى أن مكوّنات النحو والمعجم والبلاغة مكوّنات

(*) قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم – جامعة قطر.

أساسية في تحليل النص لا يمكن إغفالها، وأن الدراسة النصية الخاصة بسورة الإنسان، من ملامحها ضرورة الانتباه إلى حقيقة "كان" بين التطريز الإعرابي ودلالتها على الزمن، ومن ملامحها أيضًا أهمية الالتفات إلى أنّ لهذه السورة خطابًا مشتركًا مع سورة السجدة.

الكلمات المفتاحية:

سورة الإنسان – نحو النص – التفسير – لسانيات الخطاب القرآني – الإعراب – القراءات – الاستشهاد والاحتجاج – المكوّن المعجمي – المكوّن البلاغي – المناسبة – سورة السجدة.

The difference between the requirements of syntax and the requirements of analyzing and interpreting the Qur'anic text

Example of application on Surah Al-Insan

Professor Abdelsalam Elsayed Hamed

Department of Arabic Language

College of Arts and Sciences- Qatar University

Summary:

Within the framework of the methodological Epistemological problem related to the relationship between Arabic grammar and the text and its studies, specifically text grammar, this research attempts to achieve two aims: the first is to present a practical model to demonstrate what the relationship between Arabic grammar and the Qur'anic text could be, by applying it to Surat al-Insan according to a textual Epistemological perspective. The second: Contributing to resolving the problem of the contradiction between what is required of interpreting the Qur'anic text in terms of economy in parsing and avoiding grammatical artifice and its complexity, and the view that the multiplicity of parsing aspects is a natural phenomenon in the Qur'an - and of course other eloquent texts - and indeed is one of the signs of the richness and richness of its meaning and evidence of its miraculous nature. To this end, we have addressed two main topics, the first: "The Grammatical Requirements in the Text." This was accomplished by analyzing and commenting on eleven issues in Surat al-Insan, varying in scope and type. The second section, "The Implications of Analyzing and Interpreting the Surah's Text," included dividing the surah's verses according to their content and substance into five sections and studying their relevance. This was followed by examining various phenomena specific to the interpretation and analyzing style and discourse.

One of the most important results of the research on the required grammar is that it includes - in addition to parsing the problematic

– adducing and citing linguistic usage, in addition to explain the variant readings, of which it is not sufficient - as we see - to look at their parsing, but rather it is also important to try to explain their semantic differences and to demonstrate their eloquence, beauty and lack of contradiction. One of the most important results of the second section is the confirmation that *munāsaba* (harmony) in the Holy Qur'an is a comprehensive concept of consistency and harmony, which includes the internal and external context of the surah, as well as reaching the conclusion that the components of grammar, vocabulary, and rhetoric are essential components in analyzing the text and cannot be ignored. And that the textual study specific to Sūrat al-Insān is characterized, among its features, by the necessity of paying attention to the reality of kāna between its syntactic embedding and its indication of time, and also by the importance of noting that this sūrah has a discourse connection in common with Sūrat al-Sajda.

Key words:

Sūrat al-Insan – Text Grammar – Tafsir; commentary – Linguistics of Qur'ānic Discourse – Parsing (iʿrāb) – Qur'ānic Readings (Qirāʾāt) – Citation (ist-ish-had) and Argumentation – Lexical Component – Rhetorical Component – Harmony (Munāsaba) – Sūrat al-Sajda

مدخل:

يحاول هذا البحث أن يعالج أمرين في آن واحد معًا: الأول تقديم أنموذج عملي لما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين النحو العربي والنص القرآني ودراساته، خاصة ما يُسمّى بنحو النص، وذلك بالتطبيق على سورة كاملة مناسبة –وهي سورة الإنسان– وفق رؤية معرفية نصية، بحيث يؤدي هذا إلى مقاربة يكون من نتائجها محاولة تحرير مفهوم التحليل اللساني للنص القرآني أو ما يطلق عليه "لسانيات تحليل الخطاب القرآني؛ "لأنه مفهوم غير جليّ بسبب عدم وضوح عناصره وما يندرج تحته، والثاني: الإسهام في حل إشكال التعارض بين ما يتطلبه تفسير النص القرآني من الاقتصاد في الإعراب والبعد عن الصنعة النحوية وتعقيدها، والرأي القائل بأن تعدد وجوه الإعراب ظاهرة طبيعية في القرآن –وغيره بالطبع من النصوص البليغة– بل إنها من أمارات ثراء معناه وغناه ومن دلائل إعجازه.

والمراد في العنوان بـ "مطلوب النحو" غاية ما يمكن أن يقوم به النحو بمعناه الاصطلاحي التقليدي التفاعلي في تحليل النص، من إعرابٍ يحتمله الكلام والمعنى، وبيان للوظائف النحوية وما يدور في هذا المجال مما يتعلق بالرواية ومسائل الاحتجاج والاستشهاد، أو غير ذلك مما سيكشفه التطبيق العملي.

وأما التفسير فله هنا –على وجه التحديد– معنيان؛ الأول: التفسير الأوليّ الدائر في فلك الإعراب والقريب منه الذي يعني الشرح العام وما يترتب على المعاني النحوية التركيبية، مما يرتبط بمعاني الجمل وتعلق بعضها ببعض، والاستعمالِ العدولي وأطراف من خصائص التراكيب. والمعنى الثاني: تفسير القرآن خاصة، وهو العلم المستقل القائم بذاته، ويُعرّف بأنه "علم يُعرَف به فهْمُ كتاب الله المنزّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكمه. واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات. ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"[1].

([1]) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٧١٩.

وبهذا التعريف الاصطلاحي للتفسير ندرك أن النحو مجال من المجالات أو الفروع التي يقوم عليها تفسير القرآن الكريم، ولا يمكن أن يستغني عنها. غير أن هذا لا يعني أن العلاقة بين النحو وعلم التفسير خلت من المآخذ أو الملحوظات، قديمًا وحديثًا. ومن آيات ذلك كتاب "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، ذو العنوان الموحي بالإشكال، الذي وضعه مؤلفه ابن هشام ليغني عن غيره من الكتب الكثيرة التي يكثر فيها التكرار، دون أن تُعنى بإفادة الأمور الكلية المؤدية إلى ضبط الإعراب وإحكامه وتنظيم قواعده، حتى قال في مقدمته: "وتتبعتُ فيه مُقْفلات مسائل الإعراب فافتتحتها، ومعضلات يستشكلها الطلاب فأوضحتها ونقّحتها، وأغلاطًا وقعت لجماعة من المعربين وغيرهم فنبّهتُ عليها وأصلحتها"[١]. وقد أكّد السيوطي أهمية صنيع ابن هشام هذا في المغني، فأشار كثيرًا – في النوع الحادي والأربعين من كتابه (الإتقان) الذي خصصه لمعرف إعراب القرآن– إلى عدد من مبادئ ضبط الإعراب عنده وأمثلته ونقَلَ بعض كلامه فيها، ومن ذلك: إشارته إلى ضابطِ تجنُّب الوجوه الضعيفة واللغات الشاذة، والتخريجِ على القريب القوي الفصيح، وقاعدة ضرورة مراعاة الشروط المختلفة بحسب الأبواب، وضابط التأمّل عند ورود المشتبهات، بل إن السيوطي في مقدمة هذا الفصل لمّح إلى مشكل الحشو والإطالة في بعض مصنفات إعراب القرآن، حيث قال: ((أفرده بالتصنيف خلائق منهم مكيّ وكتابه في المشكل خاصة، والحَوفي وهو أوضحها، وأبو البقاء العكبري وهو أشهرها، والسمين وهو أجلّها، على ما فيه من حشو وتطويل، ولخّصه السفاقسيّ فجوّده، وتفسير أبي حيان مشحون بذلك))[٢]. وإذا كان معنى هذا الكلام أن أهم ما يعيب غير قليل من كتب إعراب القرآن هو الحشو والإطالة وتكثير وجوه الإعراب وتعددها، على امتداد آيات القرآن وسوره، فإن ثمة وجهة نظر أخرى في المسألة، هي أن هذا التعدد في وجوه الإعراب إثراء للمعنى في القرآن الكريم؛ لأنه يحتمل ذلك، بل إن هذا كان من أهم الأسباب التي دفعت الدكتور عبد اللطيف الخطيب والدكتور سعد مصلوح ورجب العلوش، إلى تأليف موسوعة "التفصيل في إعراب آي التنزيل"، بدءًا من الحرص على جمع ما تفرق من وجوه الإعراب

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام: ٩/١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٥/٢، وانظر: ٦/٢–١٧.

في كتب مختلفة، جاء في مقدمتها لبيان أسباب تأليف الكتاب أنه يُرجى منه أن يكون واسطة، يُناط منها تحصيل ثمرة كتب الإعراب عند المتقدمين وتذليل قطافها، من جهات:

((أولاها: أنّ مصنفات المتقدمين لا يكاد يستقل أي منها بإعراب كافٍ مستوعب لشتات وجوه الأعاريب، منتظمٍ للآيات فرادى وجُمَع... وبذلك كان الاجتزاء بأي منها أو ببعضها مفوّتًا لما وعاه غيرُه من خير كثير، وكان على طالب العلم أن يَنْفُضها جميعًا ليصل إلى قول جامع في المسألة الواحدة، وأنّى له هذا؟!

والثانية: أن تحصيل الفائدة مجتمعة في أمر إعراب الآية الواحدة أو الآيات على النحو المتقدم ليس نافلة من الأمر لا يضير فواتها، فوثاقة العلاقة بين تعدد وجوه الأعاريب وتعدد وجوه التأويل في النص الكريم مشهورة مستفيضة، ومن هنا لم يكن الإعراب نحوًا بحتًا، ولكنه –إلى ذلك– مشغلة الفقهاء والبلاغيين والأصوليين والمتكلمين، وكل من وُصلت أسبابه بعلوم العربية وثقافتها. والآخرة: أن مبنى عبارة المتقدمين على الاختصار واللمح... فإذا كان ذلك، ثبتت الحاجة إلى سفر هو نسيقٌ من كل ما تضمنته المصادر المعتمدة من وجوه الإعراب في الموضع الواحد، ليكون قيدًا للأوابد، وجامعًا لشتات الفوائد؛ في عبارة دالة لا تقع دون القديم سقوطًا، ولا تتجاوز ذَرْع المُحدثين فروطًا))[1].

إن ما رأيناه –في وجهة النظر الأولى– من تعدد وجوه الإعراب والإطالة عيبًا ومثلبة، نراه هنا في وجهة النظر الثانية مشغلة الفقهاء والبلاغيين والأصوليين وغيرهم، بل نرى حرصًا عليه لأنه قيدٌ للأوابد وجمع لشتات الفوائد! إذن ما الصواب في هذا الخلاف؟ وكيف يمكن حل عقدة هذا الإشكال؟

إنني أرى أن الجهة في الأمرين منفكة، وأن جانبًا كبيرًا من حل هذا المشكل المعرفي يكمن في وضع قاعدة تحفظ لعلم النحو حقه، وتصون لعلم التفسير وتحليل النص أو الخطاب القرآني حقوقهما دون حيف أو جور، ينتج عنه غمط جهود النحاة المعربين

(1) التفصيل في إعراب آي التنزيل، للدكتور عبد اللطيف الخطيب والدكتور سعد مصلوح ورجب العلوش، المجلد الأول، ج١/٦.

وإهدار قيمة تعدد وجوه الأعاريب التي يحتملها النص، **هذه القاعدة هي: الفرق بين مطلوب النحو ومُقتضى تحليل النص القرآني وتفسيره.**

ومن ضوابط إعمال هذه القاعدة – فيما نرى– الإفادة من الأصول النحوية والبلاغية العامة المتصلة بتماسك النص وفهمه، ومراعاة الضوابط الدلالية للتفسير؛ مما هو مبسوط في علم التفسير وفي علوم القرآن وفي أهم الدراسات النصية القرآنية[١].

ولا جدال في أن ثمة مسافة متداخلة بين النحو وتفسير النص عمومًا والنص القرآني خاصة، هي بمنزلة البرزخ بين النهر والبحر، حيث تمتزج عندها عناصر مادتهما وتختلط وتأخذ شيئًا من سمات هذا وقسطًا من سمات ذلك، إلى أن تتميز الحدود الفاصلة ويصح أن نحكم بأن هذا هو النهر وذلك هو البحر. والمسافة البرزخية هذه بين النحو والتفسير عامةً تشغلها مفاهيم ومبادئ من التحليل والفحص، من أوضحها مفهوم "النظم" بالصورة البلاغية ذات الأصول النحوية التي جلّاها عبد القاهر الجرجاني، ويمكن أن يُعدّ من هذا أيضًا مفهوم مقاربة لسانيات تحليل الخطاب القرآني، المعتمدة على البنية العاملية ومنازل الكلام في العربية، على النحو الذي طرحه الدكتور محمد الخطيب[٢]. وليس من وكدنا مناقشة هذه المقاربة، والوقوف عند تداخلها في بعض أسسها مع تفسير القرآن وعلومه، وما يمكن أن يُذكر عليها من ملاحظ، مع الإقرار بأهمية المحاولة ودقة جانب وافر مما ورد فيها.

لكن الذي نريد أن ننبه عليه عمومًا أن هذه المسافة البينية بين النحو والتفسير، ستظل من الناحية المنهجية مَشغلة لمحاولة سد الفجوة بين النحو العربي ولسانيات النص، وتقديم صور مختلفة من المقاربات. وإذا كان بعض هذه المقاربات صحيحًا ومفيدًا في

---

(١) انظر: المعنى في علم الكلام والتفسير والنقد العربية القديم، رؤية نحوية لعبد السلام حامد (حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة ٤٧٤، الحولية ٣٧، ٢٠١٧) ص٦٣–٦٥، وانظر أيضًا: دلائل النظام لعبد الحميد الفراهي.

(٢) انظر مواضع مختلفة في كتاب: البنية العاملية ومنازل الكلام في العربية، نحو لسانيات لتحليل الخطاب القرآني للدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب.

مجال النص القرآني مثلًا، فستُطلّ علينا وتواجهنا أسئلة من قبيل: وماذا عن أنواع النصوص الأخرى خاصة الشعر؟ ثم ماذا عن طبقات دلالة النص ومضمونه التداولي؟

ولذلك أظن أن من المحاولات المجدية هنا، مثل هذا الأنموذج التطبيقي العملي لدراسة سورة من سور القرآن، يكون منهجنا فيه في المقام الأول معرفيًّا يعتمد على المقارنة في إطارها العام بين الجانبين الأساسيين هنا: مطلوب النحو ومقتضى تحليل النص وتفسيره، ثم الإفادة في الجانب الثاني (مقتضى تحليل النص وتفسيره) من جهود أبرز المفسرين والمعربين، وتوظيف بعض الأسس والمعطيات النصية المنتخبة المهمة في التحليل والتفسير.

وعند العود إلى ما بدأنا به من حديث الفرق بين مطلوب النحو ومقتضى تحليل النص وتفسيره، لا ينبغي أن يُفهم أن هذه القاعدة هي نفسها قاعدة التوجيه المعروفة عند ابن جني –وتبعه فيها ابن هشام– وهي "الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى"[1]؛ لأن هذه قاعدة تحليلية جزئية مقتصرة على توجيه التراكيب وأجزائها، تستعمل عند محاولة التوفيق بين ما تقتضيه صناعة النحو والمعنى، وما نريده في القاعدة الأخرى التي نقترحها كلّي عام.

وبناء على ما سبق كله، سيكون نظرنا ودرسنا في المبحثين التاليين: مطلوب النحو في النص، ومقتضى تحليل نص السورة وتفسيرها.

(1) انظر: الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار ١/٢٨٠.

المبحث الأول

مطلوب النحو في النص

من منطلق وجهتنا التي حددناها هنا في مطلوب النحو في سورة الإنسان، لدينا تحليل جانبين أو قسمين يجب نقوم بهما وننظر فيهما هما: إعراب المُشْكِل، وتوجيه القراءات. ولصعوبة الفصل بين هذين الجانبين في كل موضع، سنتناولهما معًا بحسب الواقع فيه، وستكون عنايتنا في القراءات بالوارد في آيات السورة من القراءات المتواترة العشر، والمهم الجدير بالتوقف عنده مما سواها.

ونقصد بالمُشْكِل هنا ما توقف عنده النحاة والمفسرون بشكل ملحوظ، وأشكل عليهم إعرابه وتوجيهه، وقد يكون بادي الرأي وفي الظاهر لا إشكال فيه، ولكنّ حصاد النظر فيه يكشف اختلاف الآراء في تناوله. وثمة ملحوظة مهمة نسجلها أولًا هنا، هي أن المشكل إعرابه في القرآن وغيره من الكلام البليغ إنما كان كذلك لخروجه -قليلًا أو كثيرًا- عن مألوف الاستعمال واللغة وركوبه "شجاعة العربية"، على حد تعبير ابن جني. ولأجل ذلك يُعدّ العدول فيه مع تفاوت درجاته من سمات أسلوبه وامتيازه.

وبناء على هذا، إذا نظرنا فيما توقف المعربون والمفسرون عنده في سورة الإنسان مما أشكل إعرابه وكان محل توجيه نحوي، فإننا بعد فحص ما قدموه على اختلاف مناهجهم في هذه السبيل ومراجعته، نجد أن أهم مسائل النحو وتوجيه الإعراب في السورة تكاد تنحصر في المسائل والمواضع الآتية، التي سنذكرها بتحليلها وفق ما قالوه في المقام الأول ثم ما يبدو لنا فيها. وعند الانتهاء من عرض هذه المسائل سنتبعها بتعليق نذكر فيه خلاصة التحليل وأهم نتائجه.

أولًا- مسائل إعراب المشكل وتوجيه القراءات:

(١) قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسانِ حينٌ مِن الدَّهرِ﴾ [الإنسان:١]، ورد في توجيه (هل) هنا رأيان أساسيان:

الأول: أنه حرف للاستفهام، وقد جعله أبو حيان استفهامًا محضًا؛ لأن هذا -كما ذَكر- هو الغالب عليه عند دخوله على الفعل. ومعنى الآية -على ما ذكر السمين-

"أي هو ممن يُسأل عنه لغرابته، أأتى عليه حين من الدهر لم يكن كذا؟". وقد عقّب السمين على كلام أبي حيان هذا أولًا بنقل كلام مكّي بن أبي طالب الذي قال فيه: "... والأحسن أن تكون "هل" على بابها للاستفهام الذي معناه التقرير، وإنما هو تقرير لمن أنكر البعث..."، ثم قال، أي السمين الحلبي: "فقد جعلها لاستفهام التقرير، لا للاستفهام المحض، وهذا هو الذي يجب أن يكون؛ لأن الاستفهام لا يرد من الباري تعالى على هذا النحو وما أشبهه"[١].

الثاني: أن معناه "قد"، وممن قال بهذا ابن عباس وقتادة[٢]، وكذلك الطبري الذي قال: "إن هل في هذا الموضع خبر لا جحْد، وذلك كقول القائل لآخر يقرّره: هل أكرمتُك؟ وقد أكرمه؛ أو هل زرتك؟ وقد زاره"[٣]. وقال الزمخشري: "(هل) بمعنى (قد) في الاستفهام خاصة، والأصل: أهل، بدليل قوله:

(سـائلْ فوارسَ يَربـوعٍ بشـدّتنا) أهلْ رأونا بسفْح القاع ذي الأَكَمِ

فالمعنى: أقد أتى؟ على التقرير والتقريب جميعًا، أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب"[٤].

وناقش ابن هشام هذه المسألة بالتفصيل عند الحديث عن وجوه استعمال (هل)، فقال إنها قد تأتي بمعنى (قد)، وعلى هذا فسر جماعة منهم ابن عباس والكسائي والفراء والمبرد قوله تعالى: ﴿هل أي على الإنسان﴾، وبالغ الزمخشري فزعم أنها أبدًا كذلك وأن الاستفهام مستفاد من همزة مقدرة قبلها، ونقل هذا في المفصّل عن سيبويه وهو ثابت في كتابه، لكن في كتابه أيضًا ما يخالفه. وقد ذكر ابن هشام أيضًا آراء بعض النحاة الآخرين في هذا ومن أهمهم ابن مالك، ثم قال: ((وقد عكس قوم ما قاله الزمخشري، فزعموا أن

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبي: ٥٨٩/١٠، ٥٩٠، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (طبعة دار الكتب العلمية – بيروت) ٣٨٥/٨.

(٢) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل، للدكتور عبد اللطيف الخطيب والدكتور سعد مصلوح ورجب العلوش، المجلد ١٥، ج٣٩٠/٢٩.

(٣) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لمحمد بن جرير الطبري: ١٢٠/٢٤.

(٤) الكشاف للزمخشري: ٦٦٥/٤.

(هل) لا تأتي بمعنى (قد) أصلًا، وهذا هو الصواب عندي؛ إذ لا مُتمسَّك لمن أثبت ذلك إلا بأحد ثلاثة أمور: الأول: أحدها: تفسير ابن عباس ولعله إنما أراد أن الاستفهام في الآية للتقرير، وليس باستفهام حقيقي. وقد صرّح بذلك جماعة من المفسرين... والدليل الثاني: قول سيبويه الذي شافه العرب وفهِم مقاصدهم، وقد مضى أن سيبويه لم يقل ذلك. والثالث: دخول الهمزة عليها في البيت (يقصد: سائلْ فوارس يربوع... أَهَلْ رأْونا...) والحرف لا يدخل على مثله في المعنى، وقد رأيتُ عن السيرافي أن الرواية الصحيحة "أم هل" و"أم" هذه منقطعة بمعنى (بل)، فلا دليل، وبتقدير ثبوت تلك الرواية فالبيت شاذ، فيمكن تخريجه على أنه من الجمع بين حرفين لمعنى واحد على سبيل التوكيد))[١].

وقد أكد الطاهر بن عاشور ما ذهب إليه ابن هشام وغيره ضمنًا –وهو الرأي الراجح– ورَدّ رأي الزمخشري، لكنه بيّن أن من قال إن (هل) بمعنى (قد) في مثل هذا الموضع ربما أراد تفسير المعنى لا الإعراب، والاستفهام هنا استفهام تقريري يفيد التحقيق على طريق الكناية، وهو موجّه إلى غير معيّن، وفائدته التشويق لمعرفة ما يأتي بعده. والمعنى: هل يُقرّ كل إنسان موجود أنه كان معدومًا زمنًا طويلًا ولم يكن شيئًا يُذكر؟[٢].

وبهذا ندرك بُعْد رأي الزمخشري ومن وافقه لضعف حجته من جهة الشاهد، ومن جهة أصل الاستعمال والقاعدة، أمام قوة توجيه صاحب النظرة النحوية الثاقبة ابن هشام، التي هي زبدة آراء متعددة سابقة أيدتها اللمحة البلاغية الكامنة في غرض الكلام، على النحو الذي أشار إليه صاحب التحرير والتنوير.

(٢) قوله تعالى: ﴿إنّا خلقنا الإنسانَ من نُطْفةٍ أمشاجٍ نبتليهِ﴾ [الإنسان:٢]، ورد في أعراب "أمشاج"[٣] قولان:

---

(١) مغني اللبيب لابن هشام: ٣٥٢/٢، ٣٥٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٧١/٢٩، ٣٧٢، ٢٨٢/٢، ٢٨٣.

(٣) الأمشاج: واحدها: مشَج بفتحتين، أو مَشْج كعدْل، وككتِف وشريف: الأخلاط، وكل شيئين اختلطا، ومعناه المحوري: "امتزاج الأشياء الكثيرة المختلفة جِرمًا واحدًا غير صلب، كما في الأمشاج المذكورة، ومنه: المشيج: ماء الرجل يختلط بماء المرأة". المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، للدكتور محمد حسن جبل: ٢٠٨٤/٤، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٨٣/٨.

الأول: أنها نعت مجرور لنُطفة، لكنّ الزمخشري عدّه مفردًا في صورة الجمع، كبُرمةٍ أعشار، وبُرْد أكياش[1]، قال: ((وهي ألفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفات للأفراد. ويقال: نطفةٌ مَشَج... ولا يصح أمشاج أن يكون تكسيرًا له، بل هما مثلان في الإفراد، لوصف المفرد بهما، ومَشَجه ومزَجه: بمعنى، والمعنى: من نطفة امتزج فيها الماءان))[2]. أما أبو حيان فقد أبقاها جمعًا، وقال: النطفة أريد بها الجنس، فلذلك وصفت بالجمع على نمط قوله تعالى: ﴿على رَفْرفٍ خُضرٍ﴾ [الرحمن:٧٦]، أو لتنزيل كل جزء من النطفة منزلة النطفة، وقد اعترض على توجيه الزمخشري لأن قوله –كما ذكر– مخالف لنص سيبويه والنحاة على أن أفعالًا لا يكون مفردًا ولا يقع نعتًا إلا بتأويل[3].

الثاني: أنها بدل، قال بهذا العكبري وأجاز النعت أيضًا، قال:" أمشاج: بدل أو صفة، وهو جمع مَشيج. وجاز وصف الواحد بالجمع هنا؛ لأنه كان في الأصل متفرقًا ثم جُمع، أي نطفة أخلاط"[4].

وما يُلحظ في نعت نطفة بأمشاج على توجيهي الزمخشري وأبي حيان –ونتيجتهما واحدة– هو معنى المبالغة في شدة الاختلاط.

(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان:٤]، المُكْث هنا في هذه الآية خاص بالقراءات، فقد ورد في لفظ (سلاسل)، صرفه ومنعُه من

---

(١) جاء في لسان العرب لابن منظور –من شواهد هذا الاستعمال–: ((كيش: ابْنُ بُزُرْجَ: ثوبٌ أَكْياشٌ وجُبَّة أَسنادٌ وثوبُ أَفْوافٍ، قَالَ: الأَكْياشُ مِنْ بُرودِ اليمن)). (طبعة دار صادر، بيروت: ٣٤٤/٦)، وجاء في مادة (خلق): ((الْجَمْعُ (أي جمع: خَلَق، بمعنى بالٍ) خُلْقانٌ وأَخْلاق. وَقَدْ يُقَالُ: ثَوْبٌ أَخلاق يَصِفُونَ بِهِ الْوَاحِدَ، إِذا كَانَتِ الخُلُوقة فِيهِ كلِّهِ كَمَا قَالُوا: بُرْمةٌ أَعْشار وَثَوْبٌ أَكْياشٌ وحبْل أَرْمامٌ وأَرضٌ سَباسِبٌ، وَهَذَا النَّحْوُ كَثِيرٌ، وَكَذَلِكَ مُلاءَة أَخْلاق وبُرْمة أَخْلاق؛ عَنِ اللِّحْيَانِيِّ، أَي نَوَاحِيهَا أَخْلاق، قَالَ: وَهُوَ مِنَ الْوَاحِدِ الَّذِي فُرِّقَ ثُمَّ جُمِع، قَالَ: وَكَذَلِكَ حَبْل أَخلاق وقِرْبة أَخلاق؛ عَنِ ابْنِ الأَعرابي. التَّهْذِيبُ: يُقَالُ ثَوْبٌ أَخلاق يُجمع بما حوله... وَقَدْ خَلُق الثَّوْبُ، بِالضَّمِّ، خُلُوقة أَي بَلِيَ، وأَخلَق الثَّوْبُ مِثْلُهُ)). (لسان العرب: ٨٨/١٠، ٨٩).

(٢) الكشاف: ٦٦٦/٤. وانظر: التحرير والتنوير ٣٧٤/٢٩.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٨٦/٨.

(٤) التبيان في إعراب القرآن للعكبري، تحقيق علي محمد البجاوي: ١٢٥٧/٢.

الصرف، وفق هذه الصور: سلاسلًا: (بالصرف والتنوين في الوصل)، وسلاسلا: (بالألف في الوقف)، وسلاسلَ: (بالمنع من الصرف في الوصل)، وثمة خلاف عند البعض في الوقف بين (سلاسلْ وسلاسلا)[١].

ورغم أن لفظ (سلاسل) ممنوع من الصرف لكونه على صيغة الجمع الأقصى، أكدّ أبو حيان أن الصرف ثابت في مصاحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة وغيرها. ومما قيل في تعليل صرفه أنه صُرفَ لمناسبة ما قبله (حيث جاءت رءوس الآيات منونة منصوبة) وما بعده كذلك: "أغلالًا وسعيرًا"، أو اتساقًا -كما ذهب الكسائيُّ وغيره وهو ممن نوّن وصلًا ووقف بالألف- مع بعض لهجات العرب الذين يصرفون جميع ما لا ينصرف[٢].

والزمخشري علل الصرف هنا بأحد احتمالين: "أحدهما: أن تكون هذه النون بدلًا من حرف الإطلاق، ويُجرى الوصل مُجرى الوقف. والثاني: أن يكون صاحب القراءة ممن ضرِيَ لسانه برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف"[٣]. وهذا الاحتمال الثاني خاصة الذي ذكره الزمخشري -حتى لو كان أصله فيما نظن ما نُقل عن الأخفش[٤]- لا يمكن قبوله لسببين: الأول في رأينا أن أكثر القراء رواية للشعر -وهو أبو عمرو بن العلاء- لم يقرأ بالتنوين وصلًا في هذا الموضع. والثاني: أنه مبني على أن القراءة المستفيضة ليست مبنية على النقل المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا خطأ منه، كما بيّن أحمد بن المنير في حاشيته على الكشاف، بل الصواب أن هذه القراءة بالتنوين مبنية على أن هذا متفق مع اللغة التي تجيز صرف ما لا ينصرف في النثر إلا أفعل، والقراءات مشتملة على اللغات المختلفة[٥].

---

(١) من خلاصة تفصيل مذاهب القراء في هذه الصور: ما نصُّه: "قرأ المدنيان وهشام وشعبة والكسائي بالتنوين وصلًا وبإبداله وقفًا، والباقون بحذف التنوين وصلًا، واختلفوا في الوقف...". البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، تأليف عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي، ص ٦٧٦.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٨٧/٨، والدر المصون للسمين الحلبي ٥٩٦/١٠، والتفصيل في إعراب آي التنزيل، المجلد ١٥، ج٣٩٥/٢٩، ٣٩٦.

(٣) الكشاف: ٦٦٧/٤.

(٤) انظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٣٤٩/٦.

(٥) انظر: الانتصاف للإمام أحمد بن المنير (بذيل الكشاف) ٦٦٧/٤.

وما ذكره النحاة في توجيه قراءة التنوين في هذا الموضع –كابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)[١]، وأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)– هو توجيه الصنعة ومقتضى القاعدة، وهو الأساس والعمدة. لكننا إذا أردنا نخطو خطوة أخرى إلى الإمام، فنلتمس أثرًا للفرق في المعنى والنظم بين قراءة المنع من الصرف وقراءة الصرف والتنوين، فربما نزعم أن لكل قراءة وجهًا خافيًا من الحسن والرونق. فقراءة المنع من الصرف والاكتفاء بالفتحة (سلاسلَ) فيها سلاسة النظم وخفته في الانتقال من المعطوف عليه إلى المعطوف ومن لفظ إلى لفظ بيسر بالغ، وإن كان في المعنى ما فيه من الوعيد، هكذا: (سلاسلَ وأغلالًا وسعيرًا)! وأما قراءة التنوين (سلاسلًا) فكأنّ فيها –بثقله وغرابته وعسره في هذا الموضع– تأكيد غلظة السلاسل وثقلها والتعثر بها والتخبط فيها، ويقوي هذا الاحتمال قول البقاعي: "وقراءة من نوّن مشيرة إلى أنها عظيمة جدًّا"[٢]. نعم، وكذلك يقويه وصف ذرْع هذه السلاسل وضخامتها في قوله تعالى: ﴿ثُمّ في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعونَ ذراعًا فاسْلُكوه﴾ [الحاقة: ٣٢]، وهكذا يكون لكل قراءة جمالها وبهاؤها. والله أعلم.

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)﴾. طبيعة التركيب في هاتين الآتين من قوله تعالى (يشربون) إلى (عبادُ الله) مشكل في الإعراب خاصة كلمة (**عينًا**) التي هي مركز اتصال بين الآيتين كثيف المعنى والأداء؛ ذلك أن بؤرة الإعراب الأولية هي العامل المتمثل في الفعل المتعدي أصالة "**يشربون**"، وقد قيل في توجيه مفعوله ما يأتي:

– محذوف، أي: يشربون ماءً، أو خمرًا من كأس أو الخمر.

– مذكور، وهو (عينًا) في أول الآية السادسة.

– لفظ "كأس" على زيادة "مِن" في الإيجاب، وهذا جائز عند الكوفيين والأخفش.

والجار والمجرور "**مِن كأس**" في توجيه تعلّقه الآراء الآتية:

– متعلق بالفعل "يشربون".

---

(١) انظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم ٣٥٨، ٣٥٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٣٥/٢١.

– متعلق بمحذوف حال من "الخمر" إن قدّرتَه المفعول به.

– متعلق بمحذوف صفة من المفعول "خمرًا" أو "ماءً".

– على جواز زيادة "مِن" لا يحتاج إلى متعلَّق، فيكون المفعول به مجرورًا لفظًا منصوبًا محلًّا، ومن المعروف عند العرب أن "الكأس" هي الزجاجة إذا كان فيها خمر، وتطلق على الخمر نفسها أيضًا. و"مِن" على الأول ابتدائية، وعلى الثاني تبعيضية أو بيانية[١].

وأما "عينًا" –وهو أكثر لفظ اختلف في إعرابه في السورة كلها– ففيه الأعاريب الآتية:

١. بدل من "كافورًا" في الآية السابقة؛ لأن ماء هذه العين في بياض الكافور وفي طيب رائحته وبرده. وهذا هو الوجه الأول والراجح عند جمهور المعربين والمفسرين[٢].

٢. بدل من محلّ "كأس"، قاله مكّي، ولم يقدّر محذوفًا، وقدّره الزمخشري، قال: "كأنه قيل: يشربون فيها خمرًا، خمرَ عين"[٣].

٣. مفعول لـ "يشربون"، أي: يشربون عينًا من كأس.

٤. وجعله مكي أيضًا منصوبًا بإضمار فعل يفسره ما بعده، أي: يشربون عينًا، أي: ماء عين، ثم حُذِف المضاف.

٥. منصوب على الاختصاص، أي بتقدير: أعني أو أخص. وجعلهما الهمداني وجهين، فقال: أو بإضمار أعني، أو أن يكون نصبًا على المدح، أي" أمدحُ أو أخُصّ.

---

(١) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل، للدكتور عبد اللطيف الخطيب والدكتور سعد مصلوح ورجب العلوش، المجلد ١٥، ج٢٩/٣٩٦، ٣٩٧.

(٢) الطاهر بن عاشور ممن اختاروا هذا الوجه وأضاف أيضًا: ومن المحتمل أن "المزاج هنا مراد به الماء، والإخبار عنه بأنه كافور من قبيل التشبيه البليغ، أي في اللون أو ذكاء الرائحة... ويحتمل أن يكونوا يمزجون الخمر بماء فيه الكافور أو بزيته، فيكون المزاج على حقيقته مما تمزج به الخمر، ولعل ذلك كان من شأن أهل الترف؛ لأن الكافور ثمين وهو معدود في العطور". التحرير والتنوير: ٢٩/٣٨١.

(٣) الكشاف: ٤/٦٦٨.

٦. ذكر السمين أنه منصوب بإضمار فعل تقديره: يُعطَوْنَ، وذكر العكبري قريبًا من هذا.

٧. ذكر مكي كذلك أنه منصوب على الحال من الضمير في "مزاجُها".

٨. أنه حال من قوله "كافورًا" على جعله اسمًا علَمًا لعين في الجنة.

٩. أو هو تمييز على القول السابق، واستحسنه الهمداني لما فيه من إيضاح إبهام "كافورًا" وتفسيره له[١].

١٠. أنه منصوب على المدح، أي أمدُح عينًا... كما يُذكر الرجل فتقول: العاقلَ اللبيب، أي: ذكرتم العاقل اللبيب.

١١. ذكر الزجاج جواز كونه من صفة الكأس، أي على المحل[٢].

وهذه الآراء أصحها وأقواها على الإطلاق الأول، وهو الوجه، كما يدل عليه نظم الكلام وسيتضح بعد، خاصة إذا طبقنا مبدأ ابن هشام الذي دعا فيه إلى عدم التخريج على الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة. وأما في الصناعة ومطلوب النحو وما يحتمله فبقية الوجوه أغلبها مقبول، ومن أقواها –في رأيي– الوجه الثالث (مفعول ليشربون)، والسابع (حال من الضمير في مزاجها).

ويبقى في إعراب المشكل من هاتين الآيتين تركيب الفعل "**يشربُ بها عباد الله**" وإشكاله في الجار والمجرور (بها). وفي توجيه الباء ما يأتي:

– الباء مزيدة، وها: هو المفعول به، أي: يشربها، ويشهد لهذا قراءة ابن أبي عبلة الذي قرأها كذلك، أي (يشربها)[٣].

– الباء بمعنى "مِن"، قاله الزجاج.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره أيضًا، ضمن ثلاثة أوجه حكاها عن ابن جرير الطبري، ووجه التمييز غير واضح فيها. انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٤٤٢/٤، وتفسير الطبري ٩٣/٢٤.

(٢) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل، المجلد ١٥، ج٣٩٨/٢٩، ٣٩٩، والدر المصون للسمين الحلبي ٥٩٩/١٠، ٦٠٠. وإعراب "عينًا" في (عينًا فيها تُسمّى سلسبيلًا) [الآية: ١٨] قريب من إعراب "عينًا" هنا في الآية السادسة. انظر: التفصيل في إعراب التنزيل المجلد ١٥، ج٤١٤/٢٩.

(٣) انظر: البحر المحيط ٣٨٧/٨.

– أنها متعلقة بمحذوف حال، تقديره: ممزوجة بها، أي: يشربون شرابهم ممزوجًا، كما في: شربتُ العسل بالماء.

– أن الجار والمجرور متعلقان بـ(يشرب)، والضمير يعود على الكأس، أي يشربون العين بتلك الكأس. والباء –على هذا– للإلصاق.

– ورأى بعضهم –ومنهم ابن مالك– أن الباء للتبعيض.

– الفعل (يشرب) مضمّن معنى (يَروى) أي: يروى بها عباد الله.

– أو أنّ (يشرب) مضمّن معنى (يلتذّ)، وعند البيضاوي التقدير: مُلْتذًّا بها.

وجملة "يشرب بها" صفة لـ"عينًا" ما دام الضمير عائدًا عليها[١].

وقد تعرض ابن هشام لتركيب (عينًا يشرب بها) عند الحديث عن معنى التبعيض في الباء، وذكر أن النحاة الذين أثبتوه جعلوا هذا الموضع من شواهده، وقال إنه يصح فيه أيضًا أن يكون مضمّنًا معنى (رويَ)، ثم قال: "وقال الزمخشري في (يشرب بها) المعنى: يشرب بها الخمر، كما تقول: شربتُ الماء بالعسل"[٢].

(٥) قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا(٧)﴾، وردت هذه الآية مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا(٦)﴾، وقد بيّن الزمخشري علاقتها بما قبلها بإشارته الدالة حيث قال: "يوفون": جواب مَن عسى يقول: ما لهم يُرزقون ذلك؟ والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات، حتى يكون ذلك أدل على أنهم أوفى بما أوجبه الله عليهم[٣]. ويزيد هذه الإشارة تفصيلًا قول الطاهر بن عاشور: إن جملة (يوفون) ((اعتراض بين جملة (يشربون من كأس) [الآية: ٥] وجملة (ويطاف عليهم بآنية من فضة) [الآية: ١٥]،

---

(١) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل، المجلد ١٥، ج٣٩٩/٢٩ – ٤٠١.

(٢) مغني اللبيب ١٠٥/١، وتتمة كلام الزمخشري هنا قوله: "فإن قلتَ: لم وصل فعل الشراب بحرف الابتداء أولًا، وبحرف الإلصاق آخرًا؟ قلت: لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته؛ وأما العين فبها يمزجون شرابهم، فكأن المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل". الكشاف: ٦٦٨/٤.

(٣) انظر: الكشاف ٦٦٨/٤.

وهذا الاعتراض استئناف بياني هو جواب عن سؤالٍ، من شأن الكلام السابق أن يثيره في نفسه السامع المغتبط بأن ينال مثل ما نالوا من النعيم والكرامة في الآخرة، فيهتم بأن يفعل مثل ما فعلوا، فذكر بعض أعمالهم الصالحة التي هي من آثار الإيمان مع التعريض لهم بالاستزادة منها في الدنيا. والكلام إخبار عنهم صادر في وقت نزول هذه الآيات، بعضه وصف لحالهم في الآخرة، وبعضه وصف لبعض حالهم في الدنيا الموجب لنوال ما نالوه في الآخرة، فلا حاجة إلى قول الفرّاء: إنّ في الكلام إضمارًا وتقديره: كانوا يوفون بالنذر))[1].

(٦) قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا(١٤)﴾، لفظ "دانيةً" فيه الوجوه الآتية:

- ذهب الزجاج إلى أنه حال معطوفة على "متكئين".
- أن يكون صفة لـ "جنة" الملفوظ بها.
- ذكر الزمخشري –وتوجيهه في هذا الموضع عمدة ومهم– أنه اسم معطوف على محل جملة "لا يرون" منصوب لأنها في موضع حال، والتقدير: غيرَ رائين فيها شمسًا ولا زمهريرًا ودانيةً عليهم ظلالُها، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين معًا، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقرّ ودنوّ الظلال عليهم.
- وقال الزمخشري وغيره أيضًا إنه يجوز أن تجعل "متكئين" و"لا يرون" و"دانية" كلها صفات لجنة. وقد اعترض على هذا السمين في غير "جنة" متأثرًا بمكي؛ لأن فيه جريانًا للصفة على غير من هي له، حيث كان يلزمه بزوز الضمير، فيقال: متكئين هم فيها[2].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٨٢/٢٩. وفي (التفصيل في إعراب آي التنزيل المجلد: ١٩، ج٢٩ ص٤٠١، ٤٠٢) تفريق بين جعل آية "يوفون بالنذر" استئنافًا بيانيًّا مسوقًا لبيان ما لأجله رزقوا وبين كلام الزمخشري، وأرى أنه لا فرق.

(٢) انظر: الدر المصون للسمين الحلبي ٦٠٤/١٠، والتفصيل في إعراب آي التنزيل المجلد ١٥، ج٤٠٧/٢٩.

– وبيّن الزمخشري كذلك أنه يجوز أن يكون "دانية" معطوفة، على "جنة" المذكورة، أي أن تكون صفة لجنة أخرى مقدرة، والتقدير: وجنة أخرى مقدّرة دانية عليهم ظلالها، لأنهم وُعدوا جنتين كما في قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنّتان﴾ [الرحمن:٤٦][١].

– ذهب الفراء والأخفش إلى أنه منصوب على المدح[٢].

وللقراءات الشاذة نصيب في هذا الموضع، فقراءة النصب في "دانية" التي عليها مدار الحديث هي قراءة الجمهور، وقال أبو حيان: ((وقرأ أبو حيوة و(دانيةٌ) بالرفع، واستدل به الأخفش على جواز رفع اسم الفاعل من غير أن يعتمد، نحو قولك: قائم الزيدان، ولا حجة فيه؛ لأن الأظهر أن يكون (ظلالُها) مبتدأ و(دانيةٌ) خبر له. وقرأ الأعمش (ودانيًا عليهم) وهو كقوله (خاشعًا أبصارهم) [القمر: ٧]، وقرأ أُبيّ (ودانٍ) مرفوع (هكذا)، فهذا يمكن أن يستدل به الأخفش))[٣]. ويبين لنا هذا الموضع امتياز أبي حيان في ذكر القراءات بالتفصيل وبيان توجيهها وإمكان الاستدلال بها.

وثمة ملحظ مهم هنا أيضًا، هو أنه على قراءة الرفع (دانيةٌ) وجعْل الجملة اسمية خبرها مقدم، تكون هذه الجملة –كما بين الزمخشري– في موضع الحال، ولعل هذا يؤكد –ضمن مراجعة الوجوه الاختبارية أو المفترضة الأخرى المذكورة– أن وجه الحال في قراءة النصب الأساسية المتواترة –إما بالعطف على "متكئين" وإما بالعطف على موضع "لا يرون"– هي الأرجح والأقوى، خاصة إذا ضعف وجه آخر لبعده أو ضعفه في الصنعة وافتقاد شرط لازم (وجه كونه لصفة لجنة المذكورة). لكن تظل للوجوه الأخرى فائدة الاختبار والتجريب وجعلها من الفروض المحتملة، التي يثبتها الترجيح والسياق أو ينفيهما كما يحدث في المختبر والتجارب العلمية.

---

(١) انظر: الكشاف ٦٧١/٤، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٨٨/٨.

(٢) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل، المجلد ١٥، ج٤٠٩/٢٩، وقد حذفنا من الوجوه المنقولة عنه ما رأينا أنه مكرر.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨٨/٨، وانظر: تفسير الطبري ١٠٣/٢٤، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري ٦٥٦/٢.

(٧) هذه مسألة من تتمة الكلام السابق على التنوين في (سلاسل) في الآية الرابعة من السورة، فالتنوين المذكور في صور قراءات هذا اللفظ يتعلق بمثله ونظيره من لفظ (قوارير المكرر) في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ(١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا(١٦)﴾، وكلاهما (أي: سلاسل وقوارير) على صيغة منتهى الجمع، وأساس جواز تنوينهما واحد مرّ ذكره عند الحديث عن "سلاسلاْ"، مع كون التنوين وتحويله إلى ألف في الوقف في "قواريرا" الأول أقوى وأوضح لأنه رأس آية، وهذا هو الأكثر في قراءته. وللفظين معًا (قواريراْ. قواريراْ) قراءات وصور خمس تتنوع بالتنوين وبغير التنوين وصلًا ووقفًا، واحدة منها غير متواترة للأعمش برفع "قوارير" الثاني على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي قواريرُ[١]. وقال البقاعي في توجيه قراءة التنوين، مشيرًا إشارة خاصة إلى دلالتها هنا: ((وقراءة من نوّن الاثنين صارفًا ما مِن حقُّه التنوينُ مشيرةٌ إلى عظمتها وامتداد كثرتها وعلوّها في الفضل والشرف. وقراءة ابن كثير في الاقتصار على تنوين الأول للتنبيه على أنه رأس آية، والثاني أوّل التي بعدها، مع إفهام العظمة لأن الثاني إعادة الأول لما تقدّم من الإفادة فكأنه منوّن، ووقف أبو عمرو على الأول بالألف مع المنع من الصرف؛ لأن ذلك كافٍ في الدلالة على أنه رأس آية))[٢].

ومن اللافت للنظر في هذا الموضع فائدة تكرير "قوارير"، فقد حسن تكراره "لِما اتصل به من بيان أصلها، ولولا التكرير لم يحسن أن يكون رأس آية لشدة اتصال الصفة بالموصوف"[٣].

وأما قوله تعالى: "قَدّروها تقديرًا"، فهي جملة في محل نصب صفة أخرى لـ "قواريراْ"، ويجوز أن تكون مستأنفة[٤]. والواو في "قَدّروها" إما أن تكون للمَطوف عليهم، ومعنى

---

(١) انظر: الكشاف ٦٧١/٤، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٩٨/٨، والتفصيل في إعراب آي التنزيل، المجلد ١٥، ج٤١٢/٢٩، ٤١٣.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٤٥/٢١، ١٤٦.

(٣) التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١٢٦٠/٢.

(٤) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل، المجلد ١٥، ج٤١٢/٢٩.

تقديرهم إياها: أنهم قدّروها في أنفسهم أن تكون على أشكال ومقادير، على حسب شهواتهم، فجاءت كما قدّروا، وإما أن تكون الواو للسُّقاة الطائفين، والمعنى: أنهم قدّروا شرابها على قدر رِي الشارب، وهذا ألذُّ له لكونه على مقدار حاجته لا يزيد ولا ينقص عنها(١).

وثمة ملحظ مهم هنا يتمثل في قراءة (قُدِّروها) بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله، وهي قراءة شاذة للشعبي وغيره من المتقدمين، وفي توجيهها آراء نَقل أغلبها وفصّلها أبو حيان على النحو الآتي:

- رأي الطبري، وهو أنها بمعنى: قُدّرتْ عليهم، بلا زيادة ولا نقصان، وإن كان لا يستجيز إلا القراءة بفتح القاف، لإجماع الحجّة من القُرّاء عليها(٢).
- رأي أبي علي الفارسي أنها مبنية على القلب؛ لأن المنطوق "قُدّروا عليها"، والحقيقة أن يُقال: قُدّرتْ عليهم، على غرار ﴿ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة﴾.
- رأي الزمخشري وهو أن هذا منقول من (قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادرًا عليه).
- توجيه أبي حاتم ومن فسّره، وهو معقّد وغريب لأنه يشتمل على حذف بعد حذف، وأوله (قُدّرت الأواني على قدر رِيّهم)، ثم (قُدّر على قدر رِيّهم إياها) ثم (قُدّر قدْرُ رِيّهم) ثم (قُدّر رِيُّهم) ثم (قُدِّروها).
- ورأى أبو حيان أن الأقرب ((في تخريج هذه القراءة الشاذة: أن يكون الأصل: قُدِّر رِيُّهم منها تقديرًا، فحذف المضاف وهو (الرِّيّ) وأقيم الضمير مقامه، فصار التقدير: قُدّروا منها، ثم اتُّسعَ في الفعل فحُذِفَتْ (مِن)، ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه فصار: قُدّروها، فلم يكن فيه إلا حذْف مضاف واتساع في المجرور))(٣).

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ٦٧١/٤، والدر المصون للسمين الحلبي ٦١٠/١٠ – ٦١١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠٧/٢٤.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨٩/٨، ٣٩٠.

(٨) قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(٢١)﴾، "عالِيَهم" –بقراءة النصب– فيه الوجوه الآتية:

– ظرف منصوب متعلق بمحذوف خبر مقدم، و"ثياب" مبتدأ مؤخر، والمعنى: فوقهم ثياب. والجملة على هذا لها احتمالان: الأول: في محل رفع صفة لـ"ولدان". وقد أنكر أبو حيان أن تكون "عاليهم" ظرفًا، بحجة أن نحو: عالٍ وعالية اسمُ فاعلٍ، ويُحتاج في إثبات كونِهما ظرفَيْن إلى أَنْ يكونَ منقولاً مِنْ كلامِ العرب مثل: (عالِيَك أو عاليتُك ثوب)، وردّ السمين على هذا بأنه: وَرَدَتْ ألفاظٌ مِنْ صيغةِ أسماءِ الفاعِلِيْن ظروفًا نحو: خارجَ الدار وداخلَها وباطنَها وظاهرَها. تقول: جلَسْتُ خارج الدارِ، وكذلك البواقي، فكذلك ينبغي أن يكون هذا. والثاني: أنه يجوز على وجه الظرفية هذا ارتفاع "ثياب" على جهة الفاعلية، على مذهب الأخفش والكوفيين، حيث يعملون الظرف وعديله وإن لم يعتمد[١].

– حال من الضمير في "عليهم" في الآية /١٩، أي: "ويطوف عليهم".

– حال من مفعول "حسِبْتَهم"، في الآية/١٩، أي" حسبْتَهم لؤلؤًا منثورًا".

– حال من مضاف مقدر، أي: رأيتَ أهلَ نعيمٍ ومُلك كبير عاليَهم، فعالِيَهم: حال من لفظ "أهل" المقدّر. وقد ذكر هذا الزمخشري.

– حال من مفعول "لقّاهم" في الآية/١١ "ولقّاهم نَضرةً وسرورًا".

– حال من مفعول "وجزاهم" في الآية/١٢، كما ذكر مكّي.

– وعلى وجوه الحالية السابقة كلها يكون "ثيابُ" مرفوعًا على الفاعلية، ولا تضر إضافته إلى معرفة في وقوعه حالًا؛ لأن الإضافة –كما ذكر السمين– لفظية.

– أنه –كما ذكر الزجّاج– حال من "وِلدان مُخلّدون" في الآية/١٩[٢].

– ذكر الطاهر بن عاشور أنه حال مفرد من "الأبرار" في الآية الخامسة[٣].

---

(١) انظر: الدر المصون ٦١٦/١٠– ٦١٨.

(٢) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل، المجلد ١٥، ج٤٢٠/٢٩، ٤٢١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٩٨/٢٩.

وثمة تعليق مهم لأبي حيان هنا؛ فقد نقل أولًا توجيه الزمخشري الذي قال فيه: "و(عاليَهم) بالنصب على أنه حال من المجرور في (ويطوف عليهم) أو في (حسبتهم)، أي يطوف عليهم وِلْدانٌ عاليًا للمطوف عليهم ثياب، أو حسبتهم (لؤلؤًا) عاليًا لهم ثياب. ويجوز أن يراد: رأيتَ أهل نعيم وملك عاليَهم ثياب". انتهى، ثم عقب على هذا الكلام بقوله:

((أما أن يكون حالًا من الضمير في (حسِبتهم)، فإنه لا يعني إلا ضمير المفعول، وهذا عائد على (ولدان) ولذلك قَدّر (عاليهم) بقوله: عاليًا لهم، أي للولدان، وهذا لا يصح؛ لأن الضمائر الآتية بعد ذلك على أنها للمطوف عليهم من قوله (وحُلّوا وسقاهم) و(إنّ هذا كان لكم جزاءً). وفَكُّ الضمائر يجعل (الأولى: بجعْل) هذا كذا، وهذا كذا –مع عدم الاحتياج والاضطرار إلى ذلك– لا يجوز. وأما جعْله حالًا من محذوف وتقديره: أهل نعيم، فلا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة الكلام وبراعته دون تقدير ذلك المحذوف))[1].

إن أهمية هذا التعقيب المهم أننا نلحظ فيه ترشيدًا للإعراب وضبطًا للتوجيه، بناء على قاعدتين أو ضابطين مهمين يحددهما ويمارسهما أبو حيان: الأول: ضابط توحيد مرجع الضمائر وجعلها منسجمة؛ إذ الأولى في الحال (عاليهم) وصاحبها وما بعدها أن يكون واحدًا. وهذا يقتضي في الهاء في (ويطوف عليهم) و(عاليَهم) و(وحُلّوا... وسقاهم) أن يكون المرجع فيها جميعًا واحدًا، وهو المطوف عليهم الذين هم في الأصل (بدءًا من الآية الخامسة وما بعدها) الأبرار عباد الله المنعمون في الجنة بألوان النعيم المختلفة، التي مر ذكرها في الآيات السابقة، أما الولدان المُخلّدون الطائفون (الآية ١٩) فنصيبهم من الضمائر –على هذا– يكون في ضمير الغائبين (إذا رأيتهم حسبتهم)، ولا تعارض ولا تداخل بين هذين النسقين.

وأما الضابط الثاني في كلام أبي حيان فهو: لا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة الكلام وبراعته دون تقدير ذلك المحذوف. وعلى هذا –وهو محق– لا حاجة لما اقترحه الزمخشري من جعل الحال من مضاف محذوف تقديره: أهل نعيم.

([1]) البحر المحيط لأبي حيان: ٣٩١/٨، وانظر: الكشاف للزمخشري ٦٧٣/٤.

والوارد في لفظ "عاليهم" عدة قراءات، اثنتان منها فقط هما المتواترتان (الأولى والثانية مما يأتي):

أ- (عاليَهم) بفتح الياء، وهي الأساسية ومدار الحديث وقراءة جمهور السبعة وآخرين.

ب- (عاليهِم) بسكون الياء وكسر الهاء، وهي قراءة نافع وأبي جعفر وحمزة من العشرة[1]، وابن مُحيصن من غيرهم. وعلى هذا "عاليهم" خبر مقدم و"ثياب" مبتدأ مؤخر، أو – على قول الأخفش ولغة للعرب–: "عاليهم" مبتدأ، و"ثيابُ" مرفوعٌ على جهةِ الفاعلية سد مسدّ الخبر، وإنْ لم يعتمد الوصفُ على نفي أو استفهام، والجملة استئناف بياني لجملة "رأيتَ نعيمًا وملكًا كبيرًا"[2].

ت- (عاليُهم) بضم الياء، وهي قراءة شاذة للأعمش وطلحة وغيرهما. و(عاليهم) مبتدأ خبره (ثياب).

ث- (علَيْهِم) على أنّ (على) حرف جر، و(ثياب) مبتدأ مؤخر، وهذه قراءة شاذة لابن سيرين ومجاهد وقتادة وغيرهم.

ج- (علَتْهُم) بتاء التأنيث فعلًا ماضيًا، وعلى هذا (ثياب) فاعل، وهذه قراءة عن عائشة رضي الله عنها. وذكر السمين أنها: مقوِّيَةٌ للأوجه المذكورة في رفع "ثياب" بالصفةِ في قراءة الباقين كما تقدَّم تفصيله.

ح- (عالِيَتُهم) بالرفع والنصب.[3]

والقراءات الشاذة من فوائد تذكّرها ودراستها –في نظرنا– أنها تبين لنا البدائل الأخرى للاستعمالات الواردة في القراءات المتواترة، وهي عندئذ إما أن تكون مقوّية لغيرها –كما أشار السمين منذ قليل– وإما أن تكون مفسرة، وإما أن تجلّي عند المقارنة بلاغة القراءة المتواترة. وبتطبيق هذا على مدار الحديث هنا نجد أن (عاليهم) بقراءتيها المتواترتين وما

---

(1) نشر القراءات العشر لابن الجزري ٤/٢٧١٥– ٢٧١٦، وتفسير الطبري ٢٤/١١٢.

(2) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/٣٩٨.

(3) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٨/٣٩١، والدر المصون للسمين الحلبي ١٠/٦١٥ – ٦١٩.

فيها من مدّ الألف في أول الآية الحادية والعشرين، نجدها عند التأمل في غاية المناسبة وجمال النظم لأنها تقابل بجناسها غير التام ما يسبقها بقليل في "عليهم" في أول الآية التاسعة عشرة (ويطوف عليهم ولدان مخلّدون...).

وأما قوله تعالى: ﴿ثيابُ سندسٍ خُضْر وإستبرق﴾، فأهم ملحظ فيه ما ورد من قراءاته:

قراءة الجمهور "ثيابُ سندسٍ" بغير تنوين على الإضافة إلى سندس. وأما "**خضرٌ وإستبرقٌ**"، ففيهما لدى القراء العشرة أربع مراتب وصور على النحو الآتي:

الأولى: قرأ نافع وحفص عن عاصم **برفعهما**، خضرٌ: صفة لثياب، وإستبرقٌ: عطف على ثياب، على تقدير حذف مضاف، أي: وثيابُ إستبرقٍ.

الثانية: قرأ حمزة والكسائي وخلَف "خُضرٍ وإستبرقٍ" **بجرهما**: خُضرٍ: صفة لسندس، على أساس أن وصف اسم الجنس الجمعي (سندس) بالجمع سائغ فصيح، وإستبرقٍ: أي بالعطف على سندس؛ لأن المعنى: ثياب من سندس وثياب من إستبرقٍ.

الثالثة: قرأ أبو جعفر والبصريان (أبو عمرو ويعقوب) وابن عامر **برفع الأول وخفض الثاني**: (خُضرٌ): صفة لثياب، و(إستبرقٍ) بالعطف على "سندسٍ". والمعنى: ثيابٌ خضرٌ من سندس ومن إستبرق. الرابعة: قرأ **بخفض الأول ورفع الثاني** ابن كثير وأبو بكر شعبة عن عاصم: (خُضرٍ): صفة لسندسٍ، و(إستبرقٌ): عطفًا على ثياب بحذف مضاف[١].

وهنا نلاحظ أن الصورة الثالثة (برفع الأول وخفض الثاني) هي الأكثر في عدد من قرأ بها من العشرة، وربما يدل هذا على كونها أكثر اتفاقًا مع قواعد النحو، ويليها الأولى والثانية ثم الرابعة، ومما يلحظ في الأولى والثانية يسرهما بالمشاكلة، والاتفاق بين ما قبل الواو وما بعدها في الرفع أو الجر.

---

(١) انظر: معجم القراءات للدكتور عبد اللطيف الخطيب ١٠/ ٢٢٤، ٢٢٥، والدر المصون للسمين الحلبي ٦١٩/١٠ – ٦٢٠، والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ٦٧٨، ونشر القراءات العشر لابن الجزري ٢٧١٦/٤.

وأما ما سوى القراءات العشر في هذا الموضع، فأشهره وأهمُّه قراءة ابن مُحَيْصِن (ت١٢٣هـ) التي دار حولها كثير من الجدال، وهي بفتح القاف في "إستبرق". وقد اضطرب النقل عنه في الهمزة، فبعضهم ينقل عنه أنه قطعها، وبعضهم ينقل عنه أنه وصلها. وقد أشار الطبري إلى هذه القراءة قائلًا: إن ابن محيصن قرأ بترك إجراء الإستبرق: (وإستبرقَ)، بالفتح بمعنى: وثياب إستبرق، وفتح ذلك أنه وجهّه إلى أنه اسم أعجمي، ولكنه وصفها بأنها بعيدة عن معروف كلام العرب الذي يوجب في مثل هذا الصرف والإجراء[١]. وابن جني جعل توجيه هذه القراءة لابن محيصن –بهمزة الوصل وفتح القاف– واحدًا في موضع "إستبرق" في سورة الكهف والرحمن والإنسان، وعدّ هذا سهوًا أو كالسهو على توهّم كونه فعلًا[٢].

والزمخشري ذكر في هذا السياق أن "إستبرق" نصبًا في موضع الجر على المنع من الصرف للعلمية غلطٌ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف، و"استبرق" بوصل الهمزة والفتح على أنه مُسمّى باستفعل من البريق ليس بصحيح أيضًا لأنه معرّب مشهور بعربيته. وأما أبو حيان فقال محتجًّا لهذه القراءة من الناحية اللغوية:

((والمنقول عنه في كتب القراءات أنه قرأ بوصل الألف وفتح القاف... ونقولُ: إنَّ ابن محيصن قارئٌ جليلٌ مشهورٌ بمعرفةِ العربيةِ، وقد أَخَذَ عن أكابرِ العلماءِ فيُتَطَلَّبُ لقراءته وَجْهٌ، وذلك أنه يَجْعَلُ استفعل من البريق تقول: بَرِقَ واسْتَبْرَق كعَجِبَ واستعجب، ولمَّا كان قولُه: «خُضْر» يدل على الخُضْرة، وهي لَوْنُ ذلك السُّنْدُسِ، وكانت الخُضْرَةُ مِمَّا يكونُ فيها لشدتها دُهْمة وغَبَش أخبرَ أنَّ في ذلك بَريقًا وحُسْنًا يُزيل غُبْشَتَه، فاستبرق فعلٌ ماضٍ، والضميرُ فيه عائدٌ على السندسِ، أو على الأخضرِ الدالِّ عليه «خُضْر». وهذا التخريجُ أَوْلَى مِنْ تَلْحين مَنْ يعرِفُ العربية وتوهيمِ ضابطٍ ثقةٍ))[٣]. وكلام أبي حيان

(١) انظر: تفسير الطبري ١١٣/٢٤.

(٢) انظر: المحتسب لابن جني ٢٩/٢، ٣٠٤ –٣٠٥، ٣٤٤.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان: ٣٩٢/٨، وانظر: الكشاف للزمخشري ٦٧٣/٤، والدر المصون للسمين الحلبي ١٠/ ٦٢٠ – ٦٢٠. والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ٦٧٨، ومعجم القراءات للدكتور عبد اللطيف الخطيب ١٠/ ٢٢٦.

هذا دليل على عنايته بالقراءات الشاذة والدفاع عنها وعن أصحابها، ما دام لها وجه في العربية. وتوجيهه له أصل في توجيه ابن جني وإن لم يُشر إليه.

(٩) قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آَثِمًا أَوْ كَفُورًا(٢٤)﴾، الذي يحتاج إلى فضل نظر هنا هو استعمال "أو"؛ لأنها ليست بمعنى الواو كما نُقل عن بعضهم[١]؛ إذ لو قيل: لا تطع منهم آثمًا وكفورًا، لجاز أن يكون نهيًا عن طاعتهما جميعًا، لا عن طاعة أحدهما. وبذلك يكون الناهي عن طاعة أحدهما: عن طاعتهما جميعًا أنهى، بطريق الأَوْلى. وبيان ذلك أن (أو) في أصل معناها تدل على أحد الشيئين أو الأشياء، ومن معاني هذا الإباحة، وتكون بعد الطلب وما يجوز فيه الجمع، نحو: جالس الزهاد أو العلماء، لكن إذا دخلت (لا) الناهية امتنع فعل الجميع، كما في: لا تكلّمْ زيدًا أو عمرًا، والتقدير: لا تكلم أحدهما، وكذلك الآية هنا: (ولا تُطعْ منهم آثمًا أو كفورًا) إذ المعنى: لا تطع أحدهما، والتقدير: لا تطع منهم آثمًا ولا كفور[٢].

(١٠) قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(٣٠)﴾، المشكل في الإعراب هنا المصدر المؤوّل بعد إلا (أن يشاء الله). وفيه التوجيهات الآتية:

– أنه منصوب على الظرفية، أي إلا وقت مشيئة الله، أي: وما تشاؤون الطاعة واتخاذ سبيلها والتقرب بها وقتًا من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله. وقال أبو حيان بعد نقل نص الزمخشري في وجه الظرفية: "ونصّوا على أنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر المصرحّ به، كقولك: أجيئك صياحَ الديك، ولا يجيزون: أجيئك أن يصيح الديك، ولا ما يصيح الديك. فعلى هذا لا يجوز ما قاله الزمخشري"[٣]. لكن أغلب القدماء على هذا التوجيه.

---

(١) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل المجلد ١٥، ج٤٢٦/٢٩، ٤٢٧.

(٢) انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١٢٦١/٢، ومغني اللبيب ٦٢/١.

(٣) البحر المحيط: ٣٩٣/٨، وانظر: الكشاف ٦٧٦/٤.

– المصدر المؤوّل –كما رأى العكبري– منصوب على الحال، أي: إلا في حال مشيئة الله تعالى. وقال السمين: فيه نظر؛ لأن هذا مقدّر بالمعرّفة إلا أن يريد تفسير المعنى.

– المصدر المؤول –في رأي مكّي– منصوب على الاستثناء، أو في موضع تقدير خافض، أي: إلا بأن يشاء الله[1].

– **ويرى الطاهر بن عاشور أن الاستثناء هنا عام، ويُفهَم من كلامه أنه يشمل ما سبق وغيره.** وهو يقدم في هذا تحليلًا نحويًّا دلاليًّا دقيقًا يكاد يكون مختلفًا كل الاختلاف عما سبق، فيه لفتات جيدة، ويقوم على ما يأتي:

أ– فعل المشيئة متعدٍّ، وحُذف مفعول (تشاؤون) لإفادة العموم، والتقدير: وما تشاؤون شيئًا أو مشيئًا، وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة، أي: ما تشاؤون شيئًا في وقت من الأوقات أو حال من الأحوال، و(ما) نافية، والاستثناء من عموم الأشياء: المشيئة وأحوالها وأزمانها.

ب– لما كان ما بعد أداة الاستثناء حرف مصدر تعيّن أن المستثنى يُقدّر مصدرًا، أي إلا شَيْء الله (بمعنى مشيئته)، وهو صالح لاعتبار المعنى المصدري، ولاعتبار الحالة، ولاعتبار الزمان؛ لأن المصدر صالح لإرادة الثلاثة باختلاف التأويل.

ت– فإن قُدّر مضافٌ كان المعنى: إلا حال مشيئة الله، أو إلا زمن مشيئته، وإن لم يُقدّر كان المعنى: إلا مشيئة لكم في الحقيقة تبعًا لمشيئة الله.

ث– إيثار اجتلاب (أن) المصدرية هنا من إعجاز القرآن.

ج – يجوز أن يكون فعلا (تشاؤون) و(يشاء الله) مُنزلَيْنِ منزلة اللازم فلا يُقدّر لهما مفعولان، وذلك على طريقة البحتري:

[شجْوُ حُسّادِهِ وغيْظُ عداهُ] أن يَرى مُبصِرٌ ويَسمعَ واعِ

ح – ويكون الاستثناء من أحوال، أي وما تحصل مشيئتكم في حال من الأحوال إلا في حال حصول مشيئة الله. وفي هذا كله إشارة إلى دقة مشيئة العبد تجاه مشيئة الله[2].

([1]) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل المجلد ١٥، ج٢٩/٤٣٣، ٤٣٤.

([2]) التحرير والتنوير (بتصرف): ٢٩/٤١٢، ٤١٣.

وثمة قراءة جديرة بالإشارة إليها. فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بياء الغيبة (وما يشاءون)، وقرأ غيرهم من العشرة بتاء الخطاب: تشاءون[١]. وعلى القراءة بها يكون في هذا الموضع التفات، لما فيه من انتقال من الغيبة في "فمن شاء اتخذ" إلى الخطاب في "وما تشاءون".

(١١) قوله تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(٣٠) يُدخِلُ مَنْ يشاءُ في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذابًا أليمًا(٣١)﴾، التحليل النحوي في هذا الموضع ليس فيه تعقيد ولا إشكال كبير، لكن النظر فيه إلى موضعين يؤدي إلى نتائج ومعطيات مهمة. هذان الموضعان هما: محل جملة "يدخل من يشاء في رحمته"، والثاني: إعراب "والظالمين" وما فيه من قراءة أخرى.

فأما محل جملة (يُدخل مَن يشاء في رحمته) فقد قيل فيها إنها:

١- في محل رفع خبر ثانٍ لـ(إنّ) في الجملة السابقة وآيتها.

٢- في محل رفع خبر لمبتدأ مقدّر، أي: هو يدخل.

٣- في محل نصب حال من لفظ الجلالة.

٤- يجوز أن تكون استئنافًا بيانيًّا[٢].

٥- يجوز أيضًا أن تكون خبر إنّ في قوله (إن الله ...) [الآية:٣٠]، وتكون جملة (كان عليمًا حكيمًا) معترضة بين اسم إن وخبرها، أو حالًا[٣].

إن أوجه الإعراب الخمسة المحتملة هذه ربما لا تكون مهمة إلا في مجال صنعة النحو؛ لأن المعنى واضح بها أو من دونها، ويدل على هذا مثلًا أننا لا نجد عند من يعنون كثيرًا بالإعراب –كالعكبري وأبي حيان والسمين الحلبي وغيرهم– كلامًا عن ذلك ولا وقوفًا عنده. ومع هذا يمكننا إذا تريّثنا قليلًا أن نرى للإعراب هنا فائدة ولصنعة النحو مزيّة، وذلك بأن نستبعد الضعيف والبعيد من الأوجه –وهو في رأينا الثاني والثالث– ونتوقف عند الراجح والمقبول، لنستعين به في تفسير المعنى وجلائه. ويدخل في هذا

---

(١) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ٦٧٨.

(٢) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل المجلد ١٥، ج٤٣٥/٢٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٤١٦/٢٩.

الأوجهُ الثلاثة الباقية وفي الصدارة منها الوجه الرابع (أن تكون الجملة استئنافًا بيانيًّا)؛ والمقصود بهذا أن تكون الجملة جوابًا عن استفهام مقدّر يسأل عن حال من اتخذ إلى ربه سبيلًا ومن لم يتخذ، فيُجاب بأنه يُدخل في رحمته مَن شاء أن أطاعه واتخذ إليه سبيلًا، وأنه أعدّ لغيرهم –وهم الظالمون– عذابًا أليمًا. وعلى حسب الوجه الخامس تكون جملة "إن الله كان عليمًا حكيمًا" على احتماليها (حاليةً أو اعتراضيةً)، مخبرة بأن وصفي العليم الحكيم، مراد به التنبيه على أن فعل الله سبحانه وتعالى كله من جزاء برحمة أو بعذاب، جارٍ على حسب علمه وحكمته[1].

والملحظ الأخير هنا الذي يعتضد في الإعراب والتحليل النحوي الدقيق مع المعنى خاص بالقراءات؛ لأن هنا قراءتين غير متواترتين: قراءة ابن مسعود: "وللظالمين أعدّ لهم"، وقراءة ابن الزبير: "والظالمون" بالرفع، وهذه أهم من سابقتها؛ لأنها عندما تقابل بقراءة الجمهور المتواترة (والظالمين أعدّ لهم) –والنصب فيها على الاشتغال وفيه عطف جملة فعلية على فعلية– لا يكون فيها هذا التناسق، إضافة إلى مخالفتها للمصحف، كما ذكر الزمخشري[2].

ثانيًا– تعليق وملاحظ:

نستطيع أن نعلق على المسائل السابقة وذكر خلاصة ما نستنبطه منها وفق النقاط الآتية:

١. **الملحظ الأول:** إذا حاولنا أن نقسّم المسائل السابقة ونصنفها، فيمكننا –مع مراعاة البدء بالمكونات أو الوحدات الصغرى والانتقال منها إلى ما هو أكبر منها– أن نصل إلى التصنيفات الآتية:

- التصنيف الأول:

يتعلق بقضية صوتية نحوية وهي التنوين وصرف الممنوع من الصرف، وذلك في المسألة الثالثة (٣) في قراءات "سلاسلاْ" في قوله تعالى: "إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاْ

(١) انظر: السابق نفسه.

(٢) انظر: الكشاف ٦٧٦/٤، والبحر المحيط ٣٩٣/٨.

وأغلالًا وسعيرًا" [الآية: ٤]، وفي المسألة السابعة (٧) في قراءات "قواريراْ" كذلك في قوله تعالى: "ويُطافُ عليهم بآنية من فضةٍ وأكوابٍ كانت قواريراْ. قواريراْ من فضةٍ قدّروها تقديرًا" [١٥، ١٦]. والقضية تتعلق هنا بالمزج بين تحقيق المناسبة الصوتية والاستفادة من التأويل والسماع. وقد تبين لنا أن هذا من مواضع القراءات المتواترة، التي يمكن أن نلتمس فيها اكتشاف الوجه البلاغي الجمالي لكل قراءة.

- التصنيف الثاني:

يرتبط بمعاني الأدوات والحروف وبيان أثرها في المعنى الجزئي أو الكلي للجملة. ويصدق هذا على موضعين: المسألة الأولى (١)، المتعلقة بـ"هل" في قوله تعالى: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر"، وقد انتهينا فيه إلى أن "هل" على معناها من الاستفهام الدال على التقرير. والموضع الثاني: المسألة التاسعة (٩) في قوله تعالى: "ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا"، حيث استعمال "أو" فيه بمعنى النهي عن فعل الجميع وهذا أبلغ.

- التصنيف الثالث: وهو يتعلق بالتراكيب. وهذا وردت له صورتان أساسيتان، أولاهما:

صورة تركيب التابع الخالص أو التابع مع غيره، وهذا في مواضع: أولها: المسألة الثانية (٢) أي ما ذكرناه في قوله تعالى: "من نطفة أمشاج نبتليه"، حيث وجّه التركيب على أنه نعت أو بدل، والأشهر وجه النعت، إما على النظر إلى (أمشاج) على أنه مفرد في صورة الجمع، وإما على أنه جمع مع تأويله. وثانيها: المسألة الرابعة (٤) وما ورد في قوله تعالى: "إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا. عينًا يشرب بها عباد الله ..". وقد تبين لنا أن هذا أكثر المواضع الإعرابية المشكلة في السورة، ومركزها إعراب كلمة "عينًا"، بسبب طبيعة التركيب قبلها وبعدها، وأن إعرابها على أنها بدل من "كافورًا" هو الأقوى والأنسب. وثالثها: المسألة الثامنة (٨) المتعلقة بقوله تعالى: "عالِيَهم ثيابُ سندسٍ خضرٌ وإستبرق..." [الآية:٢١]. وأساس المسألة هنا مركب إضافي اسمي منصوب في أحد احتمالاته القوية، وهو بنية عاملية لها ما يلزمها ويعقبها مما يمثل بنية أخرى قوامها التبعية في صورة النعت والعطف اللذين يأخذان صورًا إعرابية تختلف بحسب القراءات التي يظهر تأثيرها القوي وتَجلّيها الواضح في المفردات الخمس السابقة بحسب

المتواتر والشاذ من القراءات. ورابعها: المسألة السادسة (٦) المتعلقة بقوله تعالي: "متّكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا. ودانيةً عليهم ظلالها..."، وفي هذا تركيب ممتدٌّ رأسُه الحال (متكئين) التي أعقبها تركيب عطف نسق منصوب أيضًا، وهو (ودانية) حيث وُجِّه توجيهات عدة أهمها أنه عطف حال على مثلها أو أن يكون صفة لملفوظ به أو مقدّر. وقد تبين لنا أن من مزايا النظر في القراءة الأخرى في "ودانية" أن الوجوه الأخرى المحتملة للاستعمال –كما تبدو في بعض القراءات أو وجوه الإعراب المتعددة– تُعدّ بمنزلة الفروض التي تثبتها أو تنفيها حقيقة إجراء اختبار القواعد لها.

وثانية صورتي التركيب الأساسية في هذا القسم: تركيب المصدر المؤول على النحو الوارد في المسألة العاشرة (١٠) وموضعها قوله تعالى: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله" [الآية: ٣٠]، وهو تركيب يجمع بين عامل الفعل وعامل أداة الاستثناء. وقد بدا لنا أن من أفضل صور حل إشكاله التحليل الشامل، الذي ينظر إلى زواياه المختلفة نظرة نحوية دلالية تراعي خصائص التركيب ومقاصده.

- التصنيف الرابع:

وهو يتعلق بمحلّ الجملة من الإعراب وجهة ارتباطها بما قبلها، ومن النماذج التي اخترناها لهذا ما ورد في المسألة الخامسة (٥) أي قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الآية: ٧]، والمسألة الحادية عشرة (١١) في قوله تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(٣٠) يُدخلُ مَنْ يشاءُ في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذابًا أليمًا(٣١)﴾. وقد تبين لنا أن أقرب احتمال لتوجيه محل الجملة في الموضعين هو توجيهه على أنها من باب الاستئناف البياني.

٢. **الملحظ الثاني:** تعدد أوجه الإعراب واحتمال الاستعمال أكثر من وجه، من صوره القريبة منه التي لا يُلتفَتُ إليها: النظر إلى القراءات القرآنية المختلفة للموضع، سواء ما كان منها متواترًا وما كان منها شاذًّا له وجه قوي. والقراءات المتواترة خاصة مجال لمحاولة التماس دلالة كل وجه، واكتشاف مناسبته للنظم وجماله ما أمكن ذلك، دون الاكتفاء بالتوجيه النحوي الأصولي على النحو المعهود في أغلب المصادر النحوية

التراثية المتصلة بذلك. والقراءات الشاذة –بكونها تطرح بدائل مختلفة للاستعمال– إمّا أن تكون مقوية لغيرها أو مفسّرة له أو مُجلّية لبلاغة المتواترة ومؤكّدة لها. والقراءات بهذا تكون هي ما يجسد موقف الرواية في النموذج العملي التطبيقي، لإعراب القرآن وتفسيره ويعبّر عنه.

٣. **الملحظ الثالث:** بناء على ما سبق وعلى التناول العملي في مسائل المبحث الآنفة، ربما يبدو أن تعدد وجوه الإعراب، يتعارض مع مقتضى تحليل النص والتفسير، لكنه بمقياس مطلوب النحو لا غضاضة فيه؛ لأنه جزء أساسي من صنعة النحو وعمل النحاة، إضافة إلى اعتبار مهم وهو أنه أساس ضروري للنظر في النظم والتفسير ومدخل إليه. وتعدد وجوه الإعراب هذا الذي يعد من مطلوب النحو فقط، هو التعدد الناشئ عن الصنعة وتشقيق المعنى النحوي، دون حاجة ماسة ومراعاةٍ لروح النظم، أما تعدد احتمالات التوجيه النحوي الذي يُعَدّ من الثراء في فهم المعنى والاستجابة لبلاغة الكلام، فهذا لا غبار عليه، بل قد يكون في القرآن من وجوه الإعجاز، فالقرآن **((من جانب إعجازه يكون أكثر معانيَ من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم. وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقًا بأن يودَع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الواردُ هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى... ولما كان القرآن نازلًا من المحيط علمُه بكل شيء، كان ما تسمح به تراكيبه الجارية على فصيح الكلام البليغ باحتماله من المعاني المألوفة في أمثال تلك التراكيب، مظنونًا بأنه مراد لمُنزّله ما لم يمنع من ذلك مانع صريح أو غالب))**[١].

٤. **الملحظ الرابع:** تبين لنا بعض من أمثلة موقف الاحتجاج والاستشهاد في مسائل إعراب السورة السابقة. والاحتجاج أو الاستشهاد هنا معناه الاحتجاج للاستعمال الوارد أو الاحتجاج به. وكل هذا ندخله في مطلوب النحو ولا إنكار لوروده في إعراب القرآن وتفسيره لدى النحاة.

---

(١) التحرير والتنوير: ٩٣/١، ٩٤.

فمن أمثلة الاحتجاج للاستعمال الوارد:

- ما ذكره الزمخشري في الاحتجاج لكون "أمشاج" في (من نطفةٍ أمشاجٍ) نعتًا مفردًا وإن كانت الكلمة في صورة الجمع، من قولهم: بُرمةٌ أعشار، وبُرْدٌ أكياش. وقد أشرنا نحن إلى شواهد أخرى مما ذكروه لهذا، مثل: ثوب أخلاق.
- أنكر أبو حيان أن يكون "عاليَهم" بالنصب في قوله تعالى: "عالِيَهُم ثيابُ سندسٍ" ظرفًا لأنه غير مسموع، وردّ عليه السمين بصحته لورود نظائر له في نحو: خارجَ الدار وداخلَها.
- يدخل في هذا السياق أيضًا ما ذكره الزمخشري من شاهد شعري لكون "هل" في (هل أتى على الإنسان) بمعنى "قد"، وإن كان هذا مردودًا عليه وغير صحيح كما بيّنا.

ومن أمثلة الاحتجاج بالاستعمال الوارد:

- ما أشرنا إليه في قراءة (ودانيةٌ عليهم ظلالُها) برفع "دانية" من أن الأخفش استدلّ على جواز رفع اسم الفاعل لما بعده من غير أن يعتمد على نفي أو استفهام، ومثل ذلك قراءة رفع "عاليهم" (بتسكين الياء) في "عاليهم ثياب سندس...".
- وقوع "عالِيَهم" حالًا في قوله تعالى: "عاليهم ثياب سندس" –وهو مضاف– فيه شاهد على أن الإضافة لفظية ولا تفيد التعريف.

المبحث الثاني

مقتضى تحليل نص السورة وتفسيرها

يقتضي تحليل السورة وتفسيرها من الناحية النصية أن ننظر في معاني ألفاظها، وترتيب أجزاء الكلام وترابطه، وفيما يترتب على الدلالة الوضعية التركيبية للأبنية النحوية من دلالات بلاغية ظاهرة أو مطوية، ودلالة موقع كل جملة بحسب ما قبلها وما بعدها، وكذلك أن نتأمل ما وراء ذلك كله. وهذا يقتضي إجراءات وخطوات من أهمها تحديد مضمون السورة ومقصودها، وبيان ما فيها من مناسبة، والإشارة إلى أقسامها وظواهرها الأسلوبية العامة. وتحديد المقصود والمضمون عادة ما يأتي في دراسة أنواع النصوص الأخرى غيرِ القرآن، عقب التحليل ويكون مرحلة تالية له كأنه من النتائج، ولكن لأن الدرس هنا يتصل بمجال القرآن وعلومه الزاخرة بمنجز هائل، فلا بد أن يتغير الاتجاه ونبدأ من حيث انتهى السابقون. ولا بأس في هذا؛ لأن المعوّل عليه هو محاولة تقديم أنموذج مقارنة عملي بين مطلوب النحو ومقتضى التحليل والتفسير، عساه أن يُفضي إلى مقاربة نحوية نصية في دراسة القرآن الكريم.

وبناء على ذلك نشير إلى أن مقصود سورة الإنسان المجمل هو: ترهيب العاصي بالنار وسوء العقاب، وترغيب المطيع بالجنة وحسن الثواب، وذلك من خلال تذكير الإنسان بنعمة الإيجاد من عدم ونعمة الهداية، وما يترتب على هذا من ضرورة التيقظ للابتلاء، والعمل بمقتضاه من الطاعة وابتغاء مرضاة الله سبحانه والاستعانة به[١]. ويحكم هذا المضمونَ العام للسورة الذي يتصل بفحوى إنكار البعث في سورة القيامة، أفكارٌ أربعة رئيسة هي: الإيجاد، والإعداد، والإمداد، والإسعاد وما يقابله.

وهذه السورة مكية في رأي الجمهور، واسمها المشهور "الإنسان" وتُسمّى أيضًا: الدهر، والأبرار، والأمشاج، وهل أتى[٢]. ونتوقف فيما يأتي عند تقسيم السورة ومناسبتها وبعض الظواهر الأخرى، وسنجعل التقسيم والمناسبة معًا محورًا أساسيًّا، نسوق من خلاله بعض التعليقات المهمة على الجوانب الفرعية المتصلة بالتحليل.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩٣/١، ٩٤.

(٢) انظر: البحر المحيط ٣٨٥/٨، وروح المعاني للألوسي ١٦٦/١٥.

التقسيم والمناسبة:

المناسبة في اللغة المقاربةُ والمشاكلة، وهي في الاصطلاح علم من علوم القرآن، موضوعه النظر في انتظام مباني آيات القرآن وسوره، واتساقِ معانيها وحسنِ ترتيبها، ومرجع ذلك إلى رابط يجمع بين بعضها وبعض، ((عامٍّ أو خاص، عقلي أو حسي، أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبَّب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه. وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حالُه حالُ البناء المحكم المتلائم الأجزاء))[1].

والمناسبة العامة بين سورة الإنسان وما قبلها (سورة القيامة) تتضح بأن السورتين تدوران حول الإنسان على وجه العموم، ففي آخر القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ...﴾ [القيامة: ٣٦، ٣٧]، وفي أوّل الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(٢)﴾ [الإنسان:١، ٢]. والمناسبة بينها وبين ما بعدها (سورة المرسلات)، ختام سورة الإنسان بذكر الثواب والعقاب (الإدخال في رحمة الله أو تعذيب الظالمين)، ثم تأكيد هذا بالقَسَم في أول المرسلات بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات:٧][2].

وأما تقسيم السورة إلى مقاطع وأجزاء بحسب أفكارها –ويدخل في هذا بيان المناسبة الخاصة بين الآيات بعضها وبعض– فهو أولى خطوات التفسير وتحليل أي نص على وجه العموم، وهي مسألة إجرائية على قدر كبير من الأهمية، الغرض منها تجزئة النص للتمكن من بدء شرحه وتفسيره، ببيان أجزائه ومحاوره الأساسية وتمييزها عن الأفكار الفرعية، والتنبيه إلى كيفية الانتقال من جزء إلى جزء. وهذا الإجراء ليس سهلًا في كل

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٤٦١/٢، وانظر: البنية العاملية ومنازل الكلام في العربية، نحو لسانيات لتحليل الخطاب القرآني، للدكتور محمد الخطيب ٣٦٦-٣٦٩، ٤٣٨-٤٣٩.

(٢) انظر: البحر المحيط ٣٩٥/٨، والتناسب بين السور في المفتتح والخواتيم للدكتور فاضل السامرائي ١٧٩ – ١٨١.

الأحوال خاصة عند تحري الدقة؛ بسبب إعجاز القرآن وكثافة معانيه وتداخلها، ولذلك نرى المفسّرين ودارسي القرآن مختلفين في التقسيم. وبتطبيق هذا على سورة الإنسان نجد أن بعض المدققين منهم اجتهدوا في مقاربة التقسيم، على نحو ما نرى عند الزمخشري والبقاعي، في حين نرى غيرهم يرسلون تفسير السورة آية آية، ومَثنى –وهذا هو الغالب– أو ثُلاث، ورُباع نادرًا؛ توسلًا بالتجزئة وحرية الربط وعقد الصلات بين الآيات وأفكارها، بديلًا عن اللجوء إلى التقسيم الظاهر، وهذا ما وجدناه عند الطاهر بن عاشور. وهناك نمط آخر ربما يكون شكليًّا أكثر في التقسيم، لاحظناه عند أبي حيان؛ لأنه قسّم آيات السورة في الأساس إلى قسمين اثنين فقط: الأول: من أول السورة إلى الآية [١٤]، والثاني من الآية [١٥] إلى آخر السورة: الآية [٣١]، وهما يكادان يكونان متقاربين ولكل واحد منهما نصف السورة على وجه التقريب. وأقل شكلية من ذلك بكثير تقسيم صاحب المحرر الوجيز ابن عطية (ت ٥٤١هـ)، بل إن تقسيمه فيه قدر كبير من التوازن بين مراعاة المضمون ومقاربة تساوي مقادير الآيات في العدد، فقد قسّم السورة إلى خمسة أقسام متقاربة المقدار متميزة الأفكار، تتراوح بين خمس آيات وسبع. وأما بقية من رجعنا إليهم من المفسرين في تقسيم السورة: فالزمخشري قسم السورة إلى خمسة أقسام غير أقسام الآيات الأربع الأولى التي ذكر كل واحدة منها بصورة مستقلة. وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ورد عنده أربعة أقسام، القسم الأول فيها الآيات الأولى الثلاث. والإمام البقاعي (ت ٨٨٥هـ) ورد عنده ستة أقسام، القسم الأول فيها الآيات الثلاث الأولى. وصاحب "في ظلال القرآن" ورد عنده خمسة أقسام رئيسة، القسم الأول فيها، الآيات الثلاث الأولى، وهو متفق بدءًا ومختتمًا مع ابن كثير[١].

وإذا كان لا بد من ذكر تقسيم محدد للسورة، فإننا من خلال محاولة الجمع بين خلاصة التقاسيم السابقة والمقاربة بينها والإفادة منها، نقترح التقسيم الآتي مع وضع عنوان لكل قسم:

---

(١) من المفيد على وجه العموم في تقسيم الآيات في سور القرآن، طبعة المصحف المذيّلة بالتفصيل الموضوعي مع استخدام الترميز بالتدرج اللوني للدلالة على أقسام المواضيع وبهامشه تفسير كلمات القرآن، إعداد مروان نور الدين سوار (دار الفجر الإسلامي – دمشق وبيروت – ط٤ – ٢٠٠٩).

القسم الأول: ثلاث لوحات تمهيدية

من الآية/١ إلى الآية/٣، أي إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(٣)﴾. يشمل هذا القسم ثلاث آيات تمهيدية، الأولى هي جملة الاستفهام الابتدائية (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا)، التي يؤدي الاستفهام المطلق الجهة فيها معنى التقرير ولفت الانتباه، والجملة الثانية جملة الاستئناف البياني (إنا خلقنا الإنسان...). وبالآية الأولى مع إخباره سبحانه وتعالى في الثانية بخلقه "الإنسان من نطفة" تتحقق الإشارة إلى نعمة الإيجاد. وفي قوله: (فجعلناه سميعًا بصيرًا) إشارة إلى نعمة الإعداد، ومعناه أنه هيّأه للامتحان بكل الإدراكات التي يحتاجها خاصة السمع والبصر. والآية الثالثة هي الجملة الاستئنافية: (إنا هديناه السبيل... إما شاكرًا وإمّا كفورًا)، وفيها إشارة إلى الإمداد، أي إمداده بالهداية، مع انقسام الإنسان بعد هذا إلى نوعين: شاكر وكافر.

وثمة ملحظ واضح هنا، هو أن الاستفهام في الآية الأولى مطلق إلى كل قلب بشري: أين كان قبل أن يكون؟ ومن الذي أوجده؟ وهنا يأتي الجواب عقب هذا مباشرة، باستعمال ضمير الجمع الدال على عظمة الخالق المقتدر (إنا خلقنا... نبتليه فجعلناه... إنّا هديناه السبيل...).

القسم الثاني: بدء الترهيب والترغيب وبيان سمات الأبرار:

من الآية/٤ إلى الآية/١٠، أي من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا(٤)﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾. وموضوع هذا القسم بدْء الترهيب والترغيب وبيان سمات الأبرار. وقد بُدئ بالجملة الاستئنافية (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل...) وما بعدها من قوله: (إن الأبرار يشربون من كأس...)، وهذا مناسب لإتباع ذكر الفريقين في آيات القسم السابق بالحديث هنا عن الوعيد والوعد وذكر جزاء كل فريق. وفي هذا البدء والاستئناف بلاغةُ اللفّ والنشر –وهو من المحسنات المعنوية في علم البديع[١]– فقوله (إما شاكرًا وإما كفورًا)، فيه ذكر للشاكر المطيع أولًا ثم

(١) ويُسمّى أيضًا "الطيّ والنشر". انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، للدكتور أحمد مطلوب ٥٢٥ – ٥٢٧.

الكفور العاصي، لكنه هنا بدأ بالحديث عن قسم الكافرين وما أُعدّ لهم، ثم تلا هذا الحديثُ عن المطيعين الأبرار في (إن الأبرار يشربون..)؛ وذلك لأن ((طريق النشر المشوّش أفصح، وليُعادِل البداءة بالشاكر في أصل التقسيم، ليتعادل الخوف والرجاء، وليكون الشاكر أولاً وآخرًا))[١]، إضافة إلى أن في تأخير ذكر الشاكرين في المرة الثانية مجالًا لإطناب الكلام في وصف جزائهم، وما فيه من الخير والكرامة، وتأكيد هزّ النفوس وترغيب المؤمنين والاهتمام ببشارتهم بأتمّ وعد وأجلّه[٢].

وفي هذا القسم التركيبُ المحوريّ ((كافورًا عينًا)) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا(٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا(٦))﴾ الذي تعاظم الخلاف في توجيهه وإعرابه، على نحو ما سبق بيانه في المسائل. وقد تبين لنا أن أرجح ما قيل في "عينًا" أنه بدل من "كافورًا"، يؤكد ذلك مناسبة هذا الوجه بسياقه اللغوي للمقام من جهة استعمال فعل الكون أولًا، وبيان اختلاف الكافور عن المعهود في الدنيا ثانيًا، وكذلك دلالة "يفجّرونها تفجيرًا" على يسر الحصول على مزاج هذه العين الوفير أنّى شاءوا، يقول الإمام البقاعي: ((كان مزاجها" أي الذي تُمْزج به "كافورًا" أي لبرده وعذوبته وطيب عرفه، وذكْرُ فعل الكَوْن يدل على أنّ له شأنًا في المزج عظيمًا يكون فيه من نفس الجبلّة لا كما يُعهد. ولما كان الكافور أعلى ما نعهده جامدًا[٣]، بين أنه هناك ليس كذلك، فقال مُبدلًا من "كافور": "عينًا يشرب بها" بمزاجها، كما تقول: شربتُ الماء بالعسل... ولما كان المزاج يُتكلَّف لنقله قال: "يفجّرونها تفجيرًا" أي حال كونهم يُشقّقونها ويُجرونها بغاية الكثرة إجراءً، حيث أرادوا من مساكنهم وإن علت وغيرها))[٤]. وبهذا التصور يمكن أن يُحَلّ إشكال كبير في الإعراب والفهم لهذا التركيب

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ١٣٥/٢١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٧٩/٢٩.

(٣) قيل في تعريف الكافور إنه "زيت يُستخرج من شجرة تنبت في الصين وجاوة، وهو ثخن قد يتصلب فيصير كالزبد، وحطب شجر الكافور إذا وضع في الماء يتخمر ويصير نبيذًا، والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش". التحرير والتنوير ٣٨٠/٢٩.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٣٦/٢١، ١٣٧.

الممتد بين آيتين، وذروتُه "كافورًا عينًا". وثمة مستوى آخر أعمق من هذا الفهم في مراعاة دلالة المقام يتعلق بمناط الفائدة والخلاصة، وهو أن الأبرار يشربون الخمر من كأس تغترف من عين تتفجر لهم ممزوجة بالكافور على سعة ووفرة، وقد كان العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حينًا، وبالزنجبيل حينًا آخر، زيادة في التمتع والتلذذ بها، ومستوى هذا النعيم لا شك أنه أحلى وأجمل من شراب الدنيا؛ لأن هذه كلها أوصاف تُذْكر على وجه التقريب وتصاغ لتصور هذا الغيب المحجوب[1].

ويتعلق بنظم الآيتين السابقتين أيضًا ملمح خاص بالسبك والتماسك بين وحدات الكلام، يتمثل في التعبير عن القائمين بالحدث وهم الشاربون، فقد سُمّوا باسم "الأبرار" في الآية الخامسة، وفي تاليتها (الآية ٦) أُخْبِر عنهم بأنهم "عبادُ الله". ولهذا العدول تفسيران: الأول أن يكون الاستعمال من باب التغيير في الاسم والمسمّى واحد، وهو إظهار في مقام الإضمار، بإضافة عبوديتهم إلى الله تشريفًا وتكريمًا وإيناسًا لهم، والأبرار هم عباد الله، بل هم الشاكرون أيَضًا في آية تصنيف الإنسان في مقدمات السورة [الآية: ٣][2]. والثاني: أنه توجد مرتبتان: مرتبة الأبرار –وهؤلاء يشربون من كأس– ومرتبة عباد الله وهؤلاء هم أولياء الله وأصفياؤه، وهم أعلى مرتبة من الأبرار، فالأولون يشربون شرابًا ممزوجًا غير خالص، أما الصنف الآخر فشرابهم خالص؛ لأنهم يرتوون بالعين نفسها علاوة على التمتع بلذة نظرهم إليها[3].

وفي قوله تعالى: "يوفون بالنذر ويخافون..." [الآية ٧] إلى الآية العاشرة (إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا) استئناف بياني أشرنا إليه سابقًا، يبين سبب النعيم الذي

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣٧٨١/٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٧٩/٢٩ – ٣٨١، وفي ظلال القرآن ٣٧٨١/٦.

(٣) نظير هذا في التعبير قوله تعالى في سورة المطففين: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(٢٢)... يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ(٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ(٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ(٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ(٢٨)﴾، فهنا أيضًا صنفان: الأبرار وهم يشربون من رحيق (أي خمر)، والصنف الآخر: المقرّبون، وهم يشربون من عين التسنيم خالصة. انظر: التعبير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي ١٨٩ – ١٩١.

يتنعم به الأبرار في الجنة، وهو –في رأي الطاهر ابن عشور– يُعدّ اعتراضًا بين جملة الآيتين الخامسة والسادسة (إن الأبرار يشربون... عينًا...) وجملة (ويطاف عليهم بآنية) في الآية الخامسة عشرة [١٥]. ويشيع في الآيات الأربع صيغة الفعل المضارع الدالة على الاستمرار وتصوير أفعالهم في الخير، وحالهم في الخشية والرجاء كأنه واقع مشاهد. ومن الملامح البلاغية هنا أيضًا الإيجاز بحذف الحال قبل مقول القول في قوله تعالى: (إنما نطعمكم لوجه الله)، [الآية:٩]، والتقدير: ويطعمون الطعام قائلين. وكذلك المجاز والاستعارة في: (يومًا عبوسًا) [الآية:١٠].

ومن حسن تنسيق النظم في هذا القسم كذلك، اللفّ والنشر المعكوس بين قوله تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شرُّه مستطيرًا) [الآية: ٧] وقوله: (إنّا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا) [الآية: ١٠]؛ لأن بينهما آيتي الحديث عن الإطعام [٨، ٩]، وذلك ليكون الانتقال من ذكر الإطعام إلى ذكر ما يقولونه للمطعَمين، والانتقال من الإشارة إلى خوف يوم الحساب العَبوس القمطرير، إلى بشارتهم بوقاية الله إياهم من شر ذلك اليوم ومقابلتهم بالنضرة والسرور، في أول القسم التالي [الآية: ١١][١]. وجملة "إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا" [الآية ١٠] تعليلية مؤكدة لمضمون الجملة التي قبلها (إنما نطعكم لوجه الله...).

القسم الثالث: تفصيل النعيم والجزاء للمحسنين الأبرار:

من الآية/١١ إلى الآية/٢٢، أي من قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا(١١)﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا(٢٢)﴾. ويبدأ هذا القسم بجملة "فوقاهم الله..." وأوّلُها الفاء العاطفة المفيدة للسببية، وهي معطوفة على قوله: "يوفون بالنذر..." [الآية ٧] وتفريع عليه إلى قوله: "يومًا عبوسًا قمطريرًا: [الآية ١٠]، وهي بمنزلة النتيجة لما سبق، وفيها سبيل للتخلص والعودة إلى رجوع الكلام عن حسن الجزاء وأحوال النعيم، ظاهرًا وباطنًا، ومسكنًا وملبسًا وطيب أجواء وشرابًا.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٨٥/٢٩، ٣٨٦.

ومن ظواهر هذا القسم الجمالية الجناس المحرّف في "وقاهم" و"لقّاهم"، وكذلك تماثل الجمل الثلاث المتعاطفة "وقاهم" و"لقّاهم" و"جزاهم" في الفعلية والمضيّ، والاحتباك أيضًا[1] في قوله تعالى: "لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا"، والتقدير: لا يرون فيها شمسًا ولا قمرًا، ولا حرًّا ولا بردًا. وقد دلّ بنفي الشمس أولًا على نفي القمر لأن نوره منها، ودل بنفي الزمهرير ثانيًا على نفي الحر الذي سببه الشمس، فأفاد على الجملة أن الجنة مستغنية عن النيّرين، وأن هواءها معتدل.

وقوله تعالى: "ويطاف عليهم بآنية من فضة..." جملة معطوفة على "وجزاهم بما صبروا" [الآية: ١٢][2]، وليست معطوفة على "يشربون من كأس" [الآية: ٥] مع جَعْل ما بينهما اعتراضًا -كما رأى الطاهر بن عاشور من منطلق تناسبهما في المضارعية والحديث عن الشراب[3]- وذلك لبعد ما بين المعطوف والمعطوف عليه (عشر آيات) وأخذًا بمذهب ابن هشام في مثل ذلك. والملاحظ في هذا الفعل (يطاف) أنه جاء بصيغة المضارع الدالة على التجدد مع البناء للمفعول؛ لأنه هو المقصود من غير تعيين طائف.

ومن مناسبات هذا القسم ما دار فيه من ذكر آنية الفضة دون الذهب، واحتمال تفسير هذا أن من مقصود السورة هنا ترهيب الإنسان المُوبّخ في سورة القيامة لكفره، والإنسان أدنى المخاطبين في مراتب الخطاب؛ ولذلك اقتصر هنا في الترغيب في شرف الآنية على الفضة، دون الذهَب المذكور في سورتي فاطر والحج، المعبَّر فيهما بلفظ "الناس"، فلعل هذا لصنف وذلك لصنف أعلى من (الإنسان) في إمكان الجمع والمعاقبة،

---

(1) الاحتباك من أنواع البديع المعنوية، وهو أن يُحذف من الأول ما أُثْبَت نظيرُه في الثاني، ومن الثاني ما أُثْبت نظيره في الأول، كقوله تعالى: (ومثَلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعِق) [البقرة:١٧١]، وتقديره: ومثَل الأنبياء والكفّار كمثل الذي يَنعِق والذي يُنعَق به. انظر: الإتقان للسيوطي [النوع:٥٦] ٣٠٣/٢، ٣٠٤، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٣٥، ٣٦. ومن لطائف توجيه ذلك الموضع في سورة الإنسان، حكاية مذاكرة للاحتباك فيه إبّان لقاءٍ جمع السيوطي بصاحبه العلّامة برهان الدين البقاعي. انظر: عقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي بشرح المرشدي، تحقيق الدكتور عيسى العاكوب ١١٠٣/٢، ١١٠٤.

(2) انظر: التفصيل في إعراب آي التنزيل ٤١١/٢٩.

(3) انظر: التحرير والتنوير ٣٩١/٢٩.

وأما من هم أعلى مرتبة من هذين الصنفين من المؤمنين ومن فوقهم، فلهم زيادة على هذين الجوهرين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت[١].

وقوله تعالى: ﴿ويُسْقَون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلًا. عينًا فيها تُسمى سلسبيلًا﴾ إشارة إلى سقية أخرى، فهم مرة يشربون الخمر ممزوجة بالكافور، ومرة يشربونها ممزوجة بالزنجبيل، وكما تبين لنا مما سبق أن الكافور في الآخرة على غير المعهود في الدنيا، فكذلك الزنجبيل أيضًا، و"عينًا" هنا بدل كما كانت هناك. وليس "يُسْقَون" [الآية ١٧] هو الفعل الوحيد المبني لما لم يُسمَّ فاعله، فقبله ﴿ويُطافُ عليهم بآنية من فضة وأكواب...﴾ [الآية ١٥]، وهذا يستدعي المقارنة بينه وبين الفعل المبني للفاعل بعده في ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ [الآية ١٩]. والسبب في ذلك أن الأول المبني للمفعول الغرضُ فيه بيان المطوف به لأنه هو الأهمّ الذي به تنعُّمهم، وقد ذُكِر مُقدّمًا مُفصّلًا، أما الآخر المبني للفاعل فهو المفسِّر للطائفين بأواني الفضة طواف الخدمة، لما في تصوير طوافهم وهيئتهم من العظمة وأمارات الدلالة على الملاذّ والمحابّ[٢].

ومن المسائل المهمة في تراكيب هذا القسم لمحة مهمة خاصة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الآية:٢٠]، حيث نجد فيها مثلًا جليًّا لفرق ما بين مطلوب النحو ومقتضى تحليل الخطاب القرآني والتفسير. فمطلوب النحو في هذا التركيب نرى صورة منه لدى أبي حيان في شرحه النحوي الخالص له (أي لهذا التركيب) حيث أشار إلى أن جواب (إذا رأيت) قوله: نعيمًا، ومفعول فعل الشرط محذوف اقتصارًا. والمعنى: إذا رميت ببصرك هنا، و(ثَمّ) ظرفٌ العامل فيه (رأيتَ). وإلى جانب هذا ذَكَر تقديرًا آخر فقال: وقيل التقدير: وإذا رأيت ما ثَمَّ، على جعْل (ما) المحذوفة هنا اسمًا موصولًا حُذِف فيه (ما) كما حُذف في قوله تعالى: "لقد تقطّع بينكم" [الأنعام:٩٤] أي: ما بينكم، ثم ذكر إنكار الزجاج والزمخشري لحذف الموصول في مثل هذا وبقاء الصلة ورَدّ عليه بإجازة الكوفيين له، ثم رَدّ على تناقض ابن عطية في توجيه التركيب هنا[٣].

---

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٤٤/٢١.

(٢) انظر: ملاك التأويل لابن الزبير الثقفي ١١٢٣/٢، ١٢٢٤.

(٣) انظر: البحر المحيط ٣٩٠/٨، ٣٩١.

وأما مثال مقتضى تحليل الخطاب والتفسير فخلاصة البقاعي المختصرة المتميزة: ((ولمّا ذكر المخدوم والخدم شرع في ذكر المكان فقال: "وإذا رأيتَ"، أي أجلتَ بصرك، وحذف مفعوله ليشيع ويعمّ، "ثَمَّ" أي هناك في أي مكان وأي شيء كان "رأيت نعيمًا"...))[1]، وكذلك كلام الطاهر بن عاشور الذي نصه: ((الخطاب لغير معين. و"ثَمَّ" إشارة إلى المكان، ولا يكون إلا ظرفًا والمشار إليه هنا ما جرى ذكره، أعني الجنة المذكورة في قوله تعالى: "وجزاهم بما صبروا جنة " [الإنسان:١٢] وفعل (رأيت) مُنزّل منزلة اللازم، يدل على حصول الرؤية فقط لا تعلّقها بمرئي، أي إذا وجّهتَ نظرك، و(رأيتَ) الثاني جواب (إذا)، أي فتحتَ عينك ترى نعيمًا، والتقييد بـ(إذا) أفاد معنى الشرطية، فدل على أن رؤية النعيم لا تتخلف عن بصر المبصر))[2]. ففي هذين الاقتباسين لمحة دالة تلفت النظر إلى عنصر مهم من عناصر المضمون ومكون رئيس من مكونات النص ومقولاته، هو المكان، وتشير إلى أن هذا المكان هو الجنة التي مرّ ذكرها بلفظها في آية تسبقها بثماني آيات، وفي هذه الإشارة الفارقة من منظور تحليل النص والخطاب –كما أرى– مظهر من مظاهر السبك بالإحالة إلى المكان ونمط من الدلالة على الحبك في آن واحد. بل إن هذا مثال جليّ لتفاعل المكون النحوي (ثَمَّ) والمعجمي (الجنة) والمناسبة (الخدم والمخدوم والمكان..) في السبك والحبك.

وقوله تعالى: ﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(٢١)﴾ [الآية:٢١]، احتراس مما قد يُظن بالشراب الممزوج بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيه شيء من رجس خمر الدنيا. وفي هذه العبارة والآية التي بعدها تكريم وتجلّة لهم وثناء عليهم؛ إذ بعد أن أخبر بأنهم "يشربون من كأس" بالبناء للفاعل، ثم بالبناء للمفعول "ويُسقَون"، قال بالبناء للفاعل: "وسقاهم ربهم"؛ بيانًا لفضل ما يُسْقَونه في نفسه وفي كونه من عند الإله الأعظم، المتصف بغاية الإحسان والتكريم[3]. ثم قُرنَ هذا التكريم بالثناء عليهم بحكاية ما يقال لهم عقب

---

(١) نظم الدرر: ١٤٨/٢١.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٩٧/٢٩، ٣٩٨.

(٣) انظر: نظم الدرر: ١٤٩/٢١، والتحرير والتنوير ٤٠٠/٢٩، ٤٠١.

هذا –بصيغة الخطاب لا الغيبة– في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)﴾[الآية: ٢٢]، فكان هذا من جهة أخرى تشريفًا فوق تشريف وتكريمًا على تكريم؛ وذلك أنه مما يزيد التكريم والثناء –فيما أرى– أننا نجد الحديث كله من مطالع السورة عن فريق الأبرار بصيغة ضمير الغيبة، كما في: (يشربون – يُوفون – فوقاهم – وجزاهم – ويُطاف عليهم – عاليَهم – وحُلّوا) حتى قوله في موضع نظرنا هنا: ﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾، فإذا بنا نجد التفاتًا وانتقالًا من الغيبة إلى الخطاب المباشر في الآية الثانية والعشرين. وكأن التكريم يتدرج في مراتب، حتى يصل إلى قمته لا في "وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا" فقط، بل إلى خطاب الشكر والثناء المباشر من المولى المنعم عز وجل: "إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا"[1]! ومن الملاحظ هنا أن الكلام في هذا الحدّ من السورة خُتِم بالشكر، كما بُدئ به في نهاية القسم الأول الذي ذكر فيه انقسام الناس بعد هدايتهم إلى مبصر شاكر وأعمى كافر.

القسم الرابع: خطاب توجيه النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته:

من الآية/٢٣ إلى الآية/٢٦، أي من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا(٢٣)﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا(٢٦)﴾. والآية الأولى في هذا القسم "إنا نحن نزّلنا..." جملة استئنافية انتقل فيها الحديث بعد طول الكلام عن أحوال الآخرة، إلى قضاء الحق في الاعتناء بأحوال الناس في الدنيا، وابتدأ بحال أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم، وذكْرِ تنزيله القرآن عليه مؤكِّدًا قوله بـ"إنّ" وتكرير الضمير ("نا" الدالة على العظمة و"نحن")؛ وذلك لإفادة معنى اختصاص الله سبحانه وتعالى بالتنزيل وتأكيد عظمته وحكمته، وللإفضاء إلى زيادة الاهتمام بالخبر، والدلالة على أنه لا يفعل إلا ما هو صواب وخير. ويتتابع التوكيد في صيغة الفعل المضعّف (نزّلنا) والمصدر المنصوب (تنزيلًا). وهذا يفيد التدريج أيضًا، قال البقاعي:

---

(١) فيما راجعتُ من أمهات المصادر لم أجد من انتبه إلى هذا الالتفات، ثم اكتشفت قدرًا أنني طابقتُ أو طابقني عليه هذا المرجع المعاصر الآتي، وقعًا للخاطر على الخاطر. (انظر: الإعجاز البياني في تحولات النظم القرآني، للدكتور عبد الله الهتاري، ص٨٠)، والله أعلم.

((نزّلنا عليك" – وأنت أعظم الخلق – إنزالًا استعلى حتى صار المُنزّل خُلُقًا لك "القرآن" أي الجامع لكل هدى، الحافظ من الزيغ... وزاد في التأكيد لعظيم إنكارهم فقال: "تنزيلًا" أي على التدريج))[1].

وثمة ملحوظة أخرى مهمة هنا في حركة الضمائر، فإذا كنا قد بيّنا التفاتًا كان خافيًا في الحديث عن الأبرار الذي آخره "وسقاهم ربُّهم" بضمير الغيبة ثم الانتقال إلى التوجه إليهم بضمير الخطاب في: "إن هذا كان لكم جزاء..."، فكذلك ثمة التفات آخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣)﴾ يبدو بمقارنته بما قبله وما بعده؛ وهو لفظ "ربّ" في "رَبُّهم" [الآية ٢١] وفي "فاصبر لحكم رَبّك" [الآية ٢٤]، والحديث عن الله سبحانه وتعالى في الموضعين بضمير الغيبة والتجريد، وبين هذين ووسطه قوله: "إنّا نحن نزّلنا" بضمير التكلم الدال على العظمة الذي أشرنا إلى القصد منه قبل قليل. وعلى هذا تكون حركة الضمائر في الإحالة في هذه المواضع الثلاثة المتتابعة هكذا: غيبةً (ربُّهم) بدلًا من (سقيناهم)، ثم تكلمًا (إنا نحن نزّلنا) ثم غيبةً (لحكم ربِّك)، بدلًا من (لحكمنا).

ثم بعد ذلك ينتظم الكلام في قوله تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تُطع منهم آثمًا أو كفورًا﴾ بالفاء الفصيحة، أي إذا كان ذلك فاصبر، والجملة لا محل لها من الإعراب جواب شرط غير جازم. والضمير في "منهم" عائد على الكفرة المعلومين من السياق، وهم القسم المخالف المضاد للشاكرين. وقد ذكرنا من قبل فائدة استعمال "أو"، في أن النهي عن الواحد المبهم نهي عن الجميع في رتبة واحدة. ومناسبة قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾ وما بعده أن الصبر على حكم الله والنهي عن طاعة المشركين بأصنافهم المختلفة، يستوجبان ملازمة الموصّل إلى الله عز وجل، وهو الذكر الدائم بصوره المتنوعة التي أعظمها الصلاة، والنص على "اسم ربك" لأن التصور بحسب الاسم أوّل مراتب التصور[2].

([1]) نظم الدرر: ٢١/ ١٥٢.

([2]) انظر: السابق ٢١/١٥٥.

القسم الخامس: التذكير بالآخرة وبيان عاقبة الابتلاء:

من الآية/٢٧ إلى الآية/٣١، أي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾، إلى قوله تعالى في آخر السورة: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾. والآية الأولى هنا [٢٧] جملتها الرئيسة استئنافية لا محل لها من الإعراب، وهي بمنزلة تعليل النهي في قوله تعالى: "ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا"، و"هؤلاء" إشارة عامة إلى الغافلين عن الله من الكفرة السابقِ ذكرُهم وحضورُهم في الذهن وغيرهم[١]. وعدم التصريح بهم فيه تحقير ضمني لهم. وصيغة المضارع في "يُحبّون" و"يذرون" تدل على تجدد الفعل وتكراره في كل وقت وأن هذا ديدنهم. والآية كلُّها مسوقة مساق التعريض بتحميقهم وذمّهم والإنكار عليهم؛ ولذلك جاءت الآية التالية: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾ بمنزلة الرد على تكذيبهم الضمني وإبطال شبهتهم، ببيان إمكان إعادة خلقهم وبعثهم، ومجي الجملة اسمية مبتدؤها "نحن" مع الإخبار بالفعلية فيه دلالة على تقوية الخبر وتحقيقه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾ ((استئناف ابتدائي للانتقال من بسط التذكير والاستدلال إلى فذلكة[٢] الغرض وحوصلته، إشعارًا بانتهاء المقصود وتنبيهًا إلى فائدته ووجهِ الانتفاع به، والحثِّ على التدبر واستثمار ثمرته، وباعتبار ما تفرّع عن

---

(١) قال الطاهر بن عاشور: ((و"هؤُلاءِ" إِشَارَةٌ إِلَى حَاضِرِينَ فِي ذِهْنِ الْمُخَاطَبِ لِكَثْرَةِ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ، وَقَدِ اسْتَقْرَيْتُ مِنَ الْقُرْآنِ أَنَّهُ إِذَا أَطْلَقَ "هؤُلاء" دُونَ سَبْقِ مَا يَكُونُ مُشَارًا إِلَيْهِ فَالْمَقْصُودُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: "فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ" فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ [٨٩] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: "فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ" فِي سُورَةِ هُودٍ [١٠٩])). التحرير والتنوير: ٤٠٧/٢٩. وعبارة البقاعي في تفسير الإحالة وتوجيهها في "منهم" في: "ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا" وكذلك في: "هؤلاء" في سورة الإنسان (انظر: نظم الدرر ١٥٤/٢١، ١٥٧) – أراها أدقَّ من تعبير الطاهر بن عاشور؛ لأن توجيهه لها أقرب إلى مراعاة النظر إلى الترابط في أجزاء السورة كلها، وهذا راجع إلى عنايته بالمناسبة. قال في "هؤلاء" هنا: (("إن هؤلاء" أي الذين يغفلون عن الله من الكفرة وغيرهم)).

(٢) الفذلكة: مُجمل مَا فُصّل وخلاصته (محدّثة)، كما جاء في المعجم الوسيط. وهي أيضًا: إنهاء الأمر والفراغ منه. انظر: معجم الدوحة التاريخي (فذلك).

هذه الجملة من قوله: "فمن شاء اتخذ إلخ" يقوى موقع الفذلكة للجملة... والإشارةُ إلى الآيات المتقدمة أو إلى السورة... وَفُرِّعَ عَلَيْهِ الْحَثُّ عَلَى سلوكِ سبِيل مَرْضَاةِ اللَّه بِقوْلِه: فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا))[1].

وقد توقفنا في المسائل عند إشكال التوجيه النحوي للاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾، وذكرنا الخلاصة الوافية للدلالة العامة فيه. لكنّ لهذه الآية جانبًا آخر مهمًّا نشير إليه هنا يتصل بدلالة المقام من الوجهة التداولية؛ ذلك أنها تشير إلى معنى عقدي محوري خلافي في علم الكلام، يتعلق بمشيئة الإنسان ومشيئة الله سبحانه وتعالى. وصفوة القول في هذه القضية –كما نُقل عن أهل السنة– أن ((للعبد مشيئة تُسمّى كسبًا لا تؤثّر إلا بمشيئة الله وتحريكها لقدرة العبد))[2]. ومن أسس هذا الفهم خصائص التعبير هنا، حيث إنه يشمل تفصيل المشيئة وبيان معناها الخفي، وهو في هذا يختلف عن التعبير المختصر لها في قوله تعالى في سورة عبس: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢)﴾ [عبس:١١، ١٢]، وكذلك يشمل التعبيرُ الدلالةَ على السبيل العملي الصحيح للمشيئة –وهو سلامة الأسباب والآلات كما ذكر أبو الحسن الأشعري– ثم التذييل بعلم الله وحكمته. وكل هذا جعل آية المشيئة في سورة الإنسان أصلًا للجمع بين متعارض الآيات القرآنية في التعبير عن المشيئتين[3].

وكما بُدِئت السورة بالتذكير بالنشأة على أساس الابتلاء وانقسام الناس إلى فريقين، خُتمت ببيان عاقبة الابتلاء المفضي إلى الرحمة والسعادة أو العذاب والشقاوة، مع تقديم البشرى للمؤمنين من خلال التعبير بالفعل المضارع (يُدخل) المؤذن بالاستمرار، في مقابل وعيد الظالمين بالفعل الماضي (أعدّ لهم)، إعلامًا بأن عذابهم حاضر موجود قد فُرِغَ منه[4].

---

(١) التحرير والتنوير: ٤١١/٢٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٦١/٢١. وانظر الرد على تفسير الزمخشري لهذا الموضع في "الانتصاف" للإمام أحمد بن المنير الإسكندري، حاشية الكشاف ٦٧٦/٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤١٣/٢٩ – ٤١٥.

(٤) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٦٢/٢١، ١٦٣، والتناسب بين السور والمفتتح في الخواتيم للدكتور فاضل السامرائي ٨٣.

تعليق وظواهر متفرقة في مقتضي التفسير والتحليل والخطاب:

من خلال النظرة العامة إلى هذه الأقسام الخمسة لمضمون السورة، نلحظ أنها تشتمل على عناصر ومكونات متعددة أهمها: المكوّنات النحوية والمعجمية والبلاغية، إضافة إلى العنصر الرئيس وهو المناسبة. والمكوّن النحوي بعضه جزئي يقع داخل الجملة، وبعضه عابر لها ومتجاوز لحدودها، ومن أمثلته العطف بين الجمل والإحالة بالضمير، ومعاني الابتداء والاستئناف والاعتراض. والمكوّن المعجمي –ولنا معه وقفة لاحقة– رأينا من أمثلته التعبير عن المؤمن الصالح المقابل للكافر بثلاث مفردات هي: الشاكر والأبرار وعباد الله. وكذلك لفَتَ أنظارَنا اقتصارُ السورة في الحديث في الحلية على "الفضة" دون الذهب. والمكوّن البلاغي ذكرنا من أمثلته المجاز والاستعارة في ((عبوسًا قمطريرًا))، والإيجاز بالحذف، واللفّ والنشر في أكثر من موضع، والاحتباك، والالتفات، والتعبير عن الماضي بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار وتصوير الفعل كأنه واقع مشاهد، والجناس المحرّف[١]. والمناسبة مرّ من أمثلتها: التفريع والنتيجة والتعليل والتحميق والذم والإشعار بانتهاء المقصود والختام وغير ذلك.

إننا بعد تحليل تقسيم السورة وبيان عناصر المناسبة فيها، تبدو لنا في منهجنا التحليلي الاكتشافي ظواهر أخرى متعددة، ليست من النحو بطبيعة الحال، وهي ذات أهمية كبيرة في تحليل نص السورة وخطابها وتفسيرها، وليس من الغاية ولا الممكن هنا محاولة الاستقصاء والاستيعاب، وإنما المراد والسبيلُ ذكْرُ الظاهر المهم والإشارة إلى المثال الدال. ومن هذه الوجهة نجد أمامنا ظواهر معروفة بوجه من الوجوه وقريبة – كالمفردات أو المكون المعجمي، والمكون البلاغي اللذين أشرنا إليهما– وظواهر بعيدة غير معروفة تُعدّ من باب الاستنباط والاستنتاج، ومما استخرجناه في هذا: أثر استعمال (كان) بين التطريز الإعرابي ودلالة السياق، ونظرة في متشابه السورة، والسورة في إطار الخطاب والتداول. والنوع الأول نشير إليه باقتضاب، والثاني نتلبث عنده بقدر من التفصيل الواجب.

---

(١) انظر في مواضع البلاغة في السورة عمومًا: صفوة التفاسير، للشيخ محمد الصابوني ١٤٣٩/٣.

من أمثلة النوع الأول (الظواهر المعروفة والقريبة):

من أهم هذه الظواهر **المكوّن المعجمي** الذي أشرنا إلى طرف منه منذ قليل، وهو المعروف في تفسير القرآن وعلومه بالمفردات[١]. وسنذكر –على سبيل التمثيل لا الحصر– بعض الألفاظ التي تستحق التوقف والتأمل عندها.

أول هذه الألفاظ: "**أمشاج**". وقد مرّ الحديث عن إعراب هذا اللفظ ومعناه في الجانب التركيبي، وتبين لنا أن تركيبه مشكل وأن الراجح في إعرابه أنه نعتٌ جمع أو مفرد في صورة الجمع، وأنه بمعنى "الأخلاط". وفي هذا إشارة إلى اختلاط ماء الرجل وماء المرأة وما ينتج عنهما من تحول إلى دم[٢]. وهذا اللفظ من خصائصه وقيمه المعجمية في هذا الموضع أنه من مفردات السورة، أي أن هذا هو الموضع الوحيد له في القرآن كله، ولذلك كان من أسماء السورة، إضافة إلى "الإنسان" وأسماء أخرى. وبهذا تكون دلالته هذه، مما يميز هذا الموضع من مواضع الحديث عن مراحل خلق الإنسان في القرآن. فإضافة لفظ "أمشاج" هنا إلى التركيب بطبيعة الوقع الجاسي لأغلب أصواته (الهمزة والشين والجيم) وتقارب مخرجي الشين والجيم[٣]، والجيم تدل على تجمع هش مع حدة ما، والشين تدل على تفشّ أو انتشار مع دقة[٤]، كل هذا يدل في نظرنا على التداخل والاختلاط في تكوّن

---

(١) من أهم الكتب في هذا المجال في التراث "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ)، ولأبي حيان في تفسيره (البحر المحيط) جهد طيب في هذا. وفي مطالع العصر الحديث ظهر الكتاب الموجز المهم للإمام عبد الحميد الفراهي "مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية"، وقد جعل غايته البحث في الخلاص من العيب الناشئ من سوء فهم المفردات وبيان أثر الاعتصام بنظم الكلام في هذا. انظر: مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ص ١١٢. وكذلك من الأهمية بمكان في عصرنا الراهن: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم للدكتور محمد حسن جبل، وقد رجعنا إليه في عدة مواضع.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٧٦٩.

(٣) انظر في السلم النغمي للأصوات العربية: ثابت الإيقاع متنوع، رسالة في التشكيل الصوتي للتفعيلة العروضية، للدكتور سعد مصلوح، ص ٣٨.

(٤) انظر في المعاني اللغوية العامة للحروف الهجائية: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، للدكتور محمد جبل ١/٤٠.

النطفة وملائم لمعناه، ونظن –والله أعلم– أنه مناسب في الوقت نفسه لما ورد بعده من لفظ "نبتليه" المتضمن لمعنى التداخل، يؤكد هذا مقابلة هذا التركيب بنظيره في سورة عبس: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)﴾ [عبس:١٧–٢٠]، إذ الجامع –فيما أرى– بين موضع آية عبس وآية الإنسان الإشارة إلى الخلق من النطفة والإشارة إلى هدايته السبيل، لكن آية سورة عبس موضعها كله قائم على الاختصار واليسر واللطف، وليس فيها إشارة إلى الابتلاء وما سبقه من معنى "أمشاج". وثمة ملحظ أخير هو أن هذا اللفظ ما كان له أن يعبر عد دقيق معناه هذا إلا بصيغة الجمع من جهتين، الأولى: الدلالة على الأخلاط المجتمعة، والثانية: أن لُطف صوتي الميم والألف فيه خفّف من حدة أصواته الأخرى وحقق عذوبة اللفظ وجمال النظم. والله وأعلم.

وكذلك هذه الكلمات: "**كافورًا**"، و"**مستطيرًا**"، و"**قمطريرًا**"، و"**زمهريرًا**"، و"**تذليلًا**"، و"**زنجبيلًا**"، و"**سلسبيلًا**"، كلها من معجم السورة ومفرداتها الخاصة بها، الجديرة بالالتفات إليها وإلى معانيها الفاعلة في بنائها وأسلوبها المميز لها، ويزيدها ميْزًا لها عن غيرها وقوعها في فواصلها المنصوبة كلها، والتي لم تخرج عن الراء –وهي أكثرها– واللام، والميم، وهي أقلها. ويلي خصوصية هذه الألفاظ في السورة لفظ "قوارير" الذي تكرر مرتين فيها، ولم يرد في غيرها إلا مرة واحدة في سورة النمل [الآية:٤٤].

وإذا كان قسم غير قليل من مفردات السورة يدور حول نعيم الجنة ومتاعها (مثل: الآرائك – العين[١] – الكأس – ثياب سندس – فضة – الشراب الطهور)، فإن منها أيضًا **ما هو موجّه للزمن** ووصفه والحديث عنه، ومن ذلك بدء السورة بسؤال عن علاقة الإنسان الأبدية بالزمن حتى كان من أسمائها "الدهر": ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ

(١) ذكر الفيروزآبادي في بصيرة خاصة بلفظ العين أنها وردت في الكتاب العزيز وفي كلام العرب لمعان تنيّف على خمسين معنى، وأورد في هذا السياق: العينَ الموعود بها السابقون في قوله تعالى: (عينًا فيها تسمى سلسبيلًا) [الإنسان:١٨]، والعينَ الموعود بها الأبرار وأهل الخصوص في قوله تعالى: (عينًا يشرب بها عبد الله) [الإنسان: ٦]، وكذلك العين التي وعد بها المقربون في سورة المطففين [الآية:٢٨]. انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٤/٥–٧.

الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾. ويوم القيامة بمفرداته موضوع للخوف؛ لأن شره مستطير، أي فاش ومنتشر في كل مكان، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الآية:٧]، ولأنه كذلك عَبوس قمطرير، أي صعب شديد، من قولهم: رجل قمطرير، أي متقبّض ما بين العينين من شدة ما يجد، على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الآية:١٠]، وهو أيضًا يوم ثقيل يغفل عنه الذين يحبون العاجلة، كما جاء في الآية السابعة والعشرين.

وإذا كان قد بدا لنا جليًّا أثر أصوات الكلمة في تأكيد دلالتها ومناسبتها لموضعها في كلمة "أمشاج"، فإننا نجد الأمر نفسه في لفظ "قمطريرًا" حيث توحي أصواته بالشدة والغلظة وتتابعهما، كما توحي أصوات "سلسبيلًا" في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨)﴾ [الآية:١٨] بسلاسة ماء العين ولطفها وعذوبتها. وبهذا يتبين لنا طرف من أثر المفردات والجانب المعجمي في أداء المعنى لأنه نواته الأولى، إضافة إلى فاعلية التشكيل الصوتي فيه، وكون المعنى المعجمي كذلك بموقعه مطيّة للمجاز.

ولفظ "**الظالمين**" في الآية الأخيرة في السورة: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾[الإنسان:٣١]، الشائع فيه عند المفسرين مثل الطبري والقرطبي أنه بمعنى "المشركين" والظلم فيه بمعنى "الشرك". والراغب الأصفهاني، نقل ما يؤيد هذا المعنى في الآية ويُبيّن أنه أحد أنواع الظلم الثلاثة (الظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وبينه وبين الناس، وبينه وبين نفسه) وهو أعظمها ويتمثل في الكفر والشرك والنفاق، وإن عدّها كلها تدخل حقيقة في دائرة ظلم النفس[١]، ولكنْ بناءً على المفهوم مما ورد في "المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم" وغيره، الأَولى أن يكون "الظلم" هنا بالمعنى العام الذي يشمل كل أنواعه من الشرك والجور ومجاوزة الحد؛ لأن المعنى المحوري له: منع المستَحقّ أو انتقاصه[٢]. وعلى هذا يتحقق ما أراده المفسرون من الربط

---

(١) انظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ٥٣٧، ٥٣٨.

(٢) انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، للدكتور محمد جبل ١٣٦٨/٣ –١٣٧١، ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن لكريم للشيخ محمد الغزالي ٤٩٢، ومعجم الدوحة التاريخي: https://www.dohadictionary.org/dictionary/%D8%B8%D9%84%D9%85

والتناسب بين جزاء البار الشاكر والكفور الظالم في أول السورة وآخرها، حيث لا يمنع منه اتساع معنى "الظالمين".

من أمثلة النوع الثاني (الظواهر البعيدة المستخرجة بالاستنباط):

المثال الأول: أثر استعمال (كان) بين التطريز الإعرابي ودلالة السياق:

من الظواهر اللافتة للنظر في السورة استعمال الفعل الناسخ الناقص (كان) ماضيًا في مواضعه كافة إلا موضعًا واحدًا جاء بلفظ المضارع المنفي. ولا غرابة في هذا المنحى؛ لما لهذا الفعل من أثر لازم واضح في نصب خبره المناسب لفواصل السورة المنصوبة كلها، التي مثّل خبرُ (كان) فيها ما يزيد عن ٢٢% من جملتها. وهذا توارد ملحوظ في بعض فواصل السور المنصوبة عامة، مثل سورة الإسراء ومريم.

والذي يعنينا هنا هو تأمل العلاقة بين هذا التطريز الإعرابي ودلالة (كان) التي كانت موضع بحث للنحاة نظريًّا وللمعربين والمفسرين تطبيقيًّا[١].

ففي هذه الجمل والفواصل: ((... كان مزاجُها كافورًا)) [الآية ٥]، و((... وأكوابٍ كانت قواريرَاْ)) [الآية ١٥]، و((... كان مزاجُها زنجبيلًا)) [الآية ١٧] نجد أن (كان) هنا تؤدي وظيفتين: الأولى: التطريز الإعرابي بالنصب، والثانية: دلالة معينة اخُتلِف في تحديدها وتقديرها: فبعضٌ رأى أن (كان) هنا تدل على تأصّل معنى الخبر ووصف المزاج بأنه من كافور أو من زنجبيل، ووصف الأكواب بأنها قوارير على معنى التشبيه البليغ ، والخلاصة أن المزاج –وكذلك الأكواب– تكوّن في هيئة وخلقة عجيبة على غير المعهود[٢]، وهذا هو ما يؤكده معنى البدل في "عينًا" بعد "كافورًا" و"زنجبيلًا". وبعضٌ

---

(١) بسط هذه المسألة الدكتور فاضل السامرائي ونقل عن العلماء آراءهم المهمة فيها وتوجيهاتهم وعلّق عليها. ومن دلالات (كان) المتصلة بما نحن فيه التي أشار إليها: دلالتها على الدوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)، ودلالتها على الحال، وعلى الاستقبال، وأن تكون بمعنى (صار)، وبمعنى (ينبغي) والقدرة والاستطاعة. انظر: معاني النحو، للدكتور فاضل السامرائي ١٩٦/١ – ٢٠٢.

(٢) هذا المعنى هو خلاصة ما ذكره الزمخشري والطاهر بن عاشور مع خلاف بينهما في بعض التفاصيل.

رأى أن هذا من باب تنزيل المستقبل منزلة الماضي لبيان أنه محقق الوقوع[١]. لكن من أهم ما يقوي مجيء (كان) للإسهام في إحداث الأثر الإعرابي الظاهر في النصب، قول القرطبي إنها في قوله تعالى: ((كان مزاجها زنجبيلًا)) –صلة، أي زائدة، والمعنى: مزاجها زنجبيل[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان:٧] مفارقة عجيبة نكتشفها عند التروي والتأمل؛ فهذه الآية –كما ذكرنا من قبل– أولى آيات أربع جاءت لبيان سبب النعيم الذي يتمتع به الأبرار في الجنة، وتتضمن أفعالًا بصيغة المضارع على معنى (كانوا يوفون ويخافون ويطعمون ...)، حتى إن بعض النحاة أعرب جملة "يوفون" على أنها خبر لكان مضمرة في محل نصب. ولو وردت الآية بكان ونُطق بها لكان هذا مناسبًا ولا غرابة فيه. لكننا نجد في النصف الثاني من الآية ((كان شرُّه مستطيرًا)) وفيه "كان" رغم أنه يعبر عن مستقبل بعيد وهو يوم القيامة والحساب. إذن حُذِفت (كان) حيث كان ينبغي أن تأتي، وأتت حيث كان ينبغي ألا تأتي! وعدم مجيئها في الموضع الأول أليق بالاختصار وتقريب المعنى والحثّ عليه، ومجيء "كان" في الثاني تعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وتنزيل له منزلته تنبيهًا على تحقق وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)﴾ [الإنسان:٢٢] مرّ تفصيل موقعه وعلاقته بما قبله في القسم الثالث من تقسيم السورة. والكلام هنا عن "كان" التي تشير إلى ما سيكون ماضيًا عند حكايته وقوله، وفيها يظهر بصورة واضحة وظيفتا (كان) في القيام بالأثر الإعرابي التطريزي المناسب –وهو النصب– إضافة إلى دلالة أخرى رآها الطاهر بن عاشور تتمثل في الاستحقاق، قال: ((وإقحام فعل "كان" للدلالة على تحقيق كونه جزاءً، لا مَنًّا عليهم بما لم يستحقوا... أي هو جزاءٌ حقًّا لا

---

(١) انظر: معاني النحو ٢٠٠/١.

(٢) نص عبارة القرطبي: ((كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا "كانَ صِلَةٌ، أَيْ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلٌ، أَوْ كَانَ فِي حُكْمِ اللَّهِ زنجبيلا)). الجامع لأحكام القرآن ١٤١/١٩. وقريب من هذا ويزيده وضوحًا ما ذكره أيضًا في قوله تعالى: ((إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا)) [سورة مريم: ٤٤]: حيث قال: ((كان" صلة زائدة، وقيل: "كان" بمعنى (صار)، وقيل: بمعنى الحال، أي هو للرحمن)). المصدر السابق: ١١١/١١.

مبالغة في ذلك. وعُطف على ذلك قوله: "وكان سعيكم مشكورًا" علاوة على أن ما أُغدِق عليهم كان لهم جزاء على ما فعلوا... وإقحام فعل (كان) كإقحام نظيره سابقًا))[١].

وقوله عز من قائل: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان:٣٠]، الباحث عن الدلالة والإعراب، المتأمل فيه لا بد أن يستيقظ نظره معنى (كان) فيه، وأن يقارن بين هذا الاستعمال ونظائره العديدة التي ورد العنصران الإسناديان فيها مرفوعين في غير السورة، وليسا منصوبين كما هو الحال في سورة الإنسان، أي: "والله عليم حكيم" وما هو قريب منه.

وقد تقرّيتُ طرقًا من هذا، فتبيّن لي أن تركيب "عليمًا حكيمًا" بالنصب جاء في القرآن في عشرة مواضع أغلبها ورد في سياق فواصل منصوبة، وسبعة من هذه المواضع في سورة النساء: موضعان متشابهان تمامًا مع ما ورد في سورة الإنسان: ﴿إنّ اللهَ كان عليمًا حكيمًا﴾ [الآيتان ١١، ٢٤]، أحدهما قوله تعالى: ﴿... ولا جناحَ عليكمْ فيما تراضيتُم به مِن بعْدِ الفريضةِ إنّ اللهَ كان عليمًا حكيمًا﴾ [النساء: ٢٤]. والخمسة الباقية: (وكان اللهُ عليمًا حكيمًا)، أي بمجيء (كان) دون اقترانها قبلها بـ(إنّ)، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿... فأولئك يتوبُ اللهُ عليهمْ وكانَ عليمًا حكيمًا﴾ [النساء: ١٧].

أما تركيب "عليمٌ حكيمٌ" بالرفع، فقد جاء في خمسة عشر موضعًا، منها ستة في سورة التوبة، وأغلب المواضع الخمسة عشر ورد في سياق الفواصل المرفوعة أو الفواصل الملائمة للرفع إلا موضع الرفع الوحيد لهذا التركيب –وهو في الآية السادسة والعشرين– في سورة النساء التي يغلب على فواصلها كلها النصب عامة. ومن أمثلة هذا ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾ [التوبة: ٢٨][٢].

---

(١) التحرير والتنوير: ٤٠١/٢٩.

(٢) ومثل هذا تقرّيتُه أيضًا في تركيب ((سميعًا بصيرًا)) الذي هو أحد فواصل سورة الإنسان، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الآية: ٢]. وقد

والنتيجة التي نصل إليها من هذه المقارنة المتجاوزة إطار سورة الإنسان وبالعودة إلى فاصلتها المحددة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الآية: ٣٠] –هي تأكيد العلاقة بين اجتلاب العامل المؤثر في الشكل والتطريز الإعرابي للفاصلة المنصوبة، ودلالةِ (كان) التي حاول النحاة والمفسرون أن يلتمسوها ويستنبطوها، وبيانُ أن لوجود العامل من الناحية الشكلية أثرًا لا يقل عن دلالته، خاصة إذا كانت غائمة وغير متفق عليها، كأن يقال إن (كان) بمعنى الأزل والأبد، أي يعلم الأمر قبل وقوعه وهذا أكمل من العلم عند الوقوع أو بعده، أو ما شابه ذلك من صور التأويل[1]. فأصل المعنى في هذا والمعوّل عليه أن الله سبحانه وتعالى "عليم حكيم" مع وجود (كان) ومن غير وجودها في الكلام، ولكن مع وجود (كان) يتحقق نصب العنصر الثاني ومن غير وجودها لا يمكن هذا! والله أعلم. وكذلك الأمر في (سميع بصير) وما يشبه هذه المتلازمات.

المثال الثاني: نظرة في متشابه السورة:

من مكملات التفسير ومتمّماته النظر في متشابه السورة مع غيرها، والاستعانة بالمبدأ القريب من هذا وهو أن القرآن يفسر بعضه بعضًا. ويوازي هذا في الدراسات المعاصرة

قابلتُ بين ورود ذلك التركيب منصوبًا وروروده مرفوعًا في وصف الله سبحانه وتعالى، فوجدت مواضع النصب في ثلاث فواصل يغلب على سياقها النصب، إحداها موضعنا هنا والفاصلتان الأخريان في سورة النساء التي أشرنا منذ قليل إلى غلبة النصب على فواصلها، وموضع الأولى فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا... إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وموضع الثانية: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]. وأما تركيب الرفع ((سميعٌ بصيرٌ)) فقد ورد في أربعة مواضع: موضعان في سورة الحج [الآيتان: ٦١، ٧٥]، وواحد في لقمان [الآية:٢٨]، ومثله في المجادلة [الآية: ١]، وكلُّها التركيب فيها خبر لإنّ أو أنّ، والفواصل يغلب على سياقها الرفع وما يلائمه (غير النصب)، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: (٧٥)].

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٦٢/٢١، والتحرير والتنوير: ٤١٣/٢٩، ومعاني النحو للدكتور فاضل السامرائي ١٩٨/١، ١٩٩.

الحديثة ما يُسمّى بالتناص[١]. وقضية المتشابه وتفسير القرآن بالقرآن هذه، كان من الممكن وضعها في ظواهر النوع الأول القريبة المعروفة، بناء على أنها كذلك، أي من الظواهر المشهورة في مجال التفسير وعلومه، لكننا مع هذا آثرنا أن نضعها هنا بناء على أن إعمالها يقوم على الاستنباط والتأمل. وثمة موضعان للمتشابه نذكرهما هنا على سبيل التمثيل:

١–تركيب الاستفهام المحوري في أول السورة: ﴿هل أتى على الإنسان﴾، إضافة إلى خلاصة تحليله النحوي الذي مرّ آنفًا، أرى أنه من المهم لكمال فهمه وتذوقه وتوظيفه جيدًا في تحليل أسلوب السورة أن نقرنه بنظائره التركيبية في السور الأخرى. وأقرب النظائر إليه –مع الاختلاف الواضح في المعنى– قوله تعالى: (هل أتاك حديث الغاشية)، إذ كلاهما مفتتح سورة تبدأ بالاستفهام عمومًا، وهما تبدآن خصوصًا بـ"هل أتى"[٢]. أما مثل قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديثُ موسى﴾ [طه:٩]، وقوله: ﴿وهل أتاك نبأُ الخَصْم إذ تسوّروا المحراب﴾ [ص:٢١]، و﴿هل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المكرمين﴾ [الذاريات:٢٤] –فهو ليس مفتتحًا ومعناه مختلف، لكن أصل البناء واحد والجميع متفق في: استخدام (هل) مع (أتى) مع افتتاح كلام، سورةٍ أو غرضٍ جديد كما يبدو. يؤكد هذه العلاقة الدلالية الأسلوبية العامة قول السمين الحلبي في أول تفسير سورة الغاشية: "هل أتاكَ حديثُ الغاشية" قوله: (هل أتاك): ((هو استفهام على بابه، ويسميه أهل البيان التشويق. وقيل بمعنى "قد". وقد تقدم هذا في (هل أتى على الإنسان)))[٣].

٢–في مجال الألفاظ والتراكيب الخاصة بنعيم الجنة ومتاعها، ورد في السورة حديث عن الاتكاء على الآرائك وطواف الوِلدان بالأكواب والأباريق وغيرهما. ويكفي أن نستحضر بعض نماذج الآيات القريبة الشبه بآيات سورة الإنسان، في ذكر هذه المفردات وما يلحقها من تراكيب؛ لنرى صورًا من المتشابهات التي تتنوع في التعبير، وتعطي صورًا

(١) انظر: البيان في روائع القرآن، للدكتور تمام حسان ٤٥٧/١، ٣٢٣/٢ وما بعدها.
(٢) انظر في فواتح السور عمومًا: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٤٥٢/٢.
(٣) انظر: الدر المصون ٧٦٥/١٠.

من الاتفاق والاختلاف على أساس التفصيل أو الاختصار، أو تقديم بعض المفردات على بعض أو تبديل وصف بآخر، وغير ذلك من الطرق، ليكون كل جزء من ذلك بمنزلة لبنة مناسبة في بناء كبير، وليكون الجميع على وجه العموم، كأنه خيوط ذات ألوان متنوعة متناسقة في نسيج القرآن ونظامه، تتلاءم في الوقت نفسه مع نظام كل سورة وأسلوبها. ومن ذلك –على سبيل المثال– ما ورد في ذكر اللباس والاتكاء على الأرائك في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [سورة الكهف: ٣١]. وكذلك ذكر ألوان أخرى من النعيم منها الاتكاء على السُّرر لا الأرائك وطواف الغلمان المشبّهين باللؤلؤ المكنون في سورة الطور: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) ...(٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [سورة الطور:١٩–٢٤]. وفي سورة الرحمن ورد من هذا الباب قوله تعالى عند الحديث عن فريق السابقين أصحاب الجنتين الأُولَيَيْن: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)﴾ [سورة الرحمن: ٥٤]، وفي الحديث عمّن دونهم من فريق أصحاب اليمين ذوي الجنتين الأُخريين قوله تعالى كذلك [1]: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦)﴾ [سورة الرحمن: ٧٦]. وفي سورة الواقعة عند الحديث عن السابقين المقرّبين فقط: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ [سورة الواقعة:١٥–٢٣].

ويؤكد أهمية تأمل المتشابه بين تراكيب القرآن واستعمالاته في السور المختلفة ما ذكرناه سابقًا من الربط بين لفظ "الأبرار" وتركيب "عباد الله" في سورة الإنسان في قوله

(1) انظر: الكشاف للزمخشري ٤٥٣/٤، وصفوة التفاسير ١٢٦٢/٣، والبيان في روائع القرآن للدكتور تمام حسان ٣٥٠/٢– ٣٥٢.

تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)﴾ [الإنسان:٥، ٦]، ووجود تفسيرين لذلك يتمثلان في أن الأبرار هم عباد الله، أو أنه توجد مرتبتان: الأولى: الأبرار الذين يشربون شرابًا ممزوجًا غير خالص، والثانية: من هم أعلى منهم منزلة وهم الذين يرتوون بالعين نفسها، والدليل على هذا ما ورد من شبيه هذا الاستعمال في سورة المطففين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾، حيث إن هذا السياق معناه وجود صنفين: الأبرار، وهم الذين يشربون من رحيق ممزوج بالتسنيم، وهو أعلى شراب في الجنة، والصنف الآخر: المقرّبون، وهم الذين يشربون من عين التسنيم خالصة[١].

المثال الثالث: الخطاب المشترك لسورتي السجدة والإنسان:

نعني بمصطلح "الخطاب" مفهومه الشائع في الدرس اللساني الحديث الذي من أهم مكوّناته الدلالية: السيرورة والكلام أو النصوص ذات المعنى المتداول المؤثر في عالم الواقع، وهو بهذا –كما هو معروف– يختلف عن مفهوم "النص"[٢]. والقرآن الكريم كله نص معجز وخطاب، لكن بعض سوره وآياته ذات خطاب خاص له شواهد من أهمها فضائل الآية أو السورة ومزاياها. وسورة الإنسان –في ضوء هذا– من سور القرآن التي لها وقع خاص وخطاب مميز في حياة المسلم؛ لأنه يتلقاها بسمعه عادة بصورة متكررة في عبادته وصلاة الجماعة هي وسورة السجدة. ورد في «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ((كَانَ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ في الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ "الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ" و"هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حين من الدهر"))[٣].

---

(١) انظر: التعبير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي ١٨٩ – ١٩١.

(٢) انظر: في العربية واللسانيات، أسس ومقاربات لعبد السلام حامد ٢٣٢ – ٢٣٤.

(٣) فتح الباري لابن حجر: ٣٧٨/٢ (الحديث رقم:٨٩١)، وانظر: التحرير والتنوير ٢٠١/٢١.

وجاء في تفسير أضواء البيان ما يأتي في شرح هذه المسألة:

((وَقَدْ جَاءَت السُّنَّةُ بِقِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ فَجْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، مَعَ قِرَاءَة سُورَةِ السَّجْدَةِ فِي الرَّكْعَة الْأُولَى. وقَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ: إنَّ قِرَاءَتَهمَا مَعًا فِي ذَلِك الْيَوْمِ؛ لِمُنَاسَبَة خَلْق آدَمَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَة، لِيَتَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي هَذا الْيَوْمِ -وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ- مَبْدَأَ خَلْقِ أَبِيهِ آدَمَ، وَمَبْدَأَ خَلْقِ عُمُومِ الْإِنْسَانِ، وَيَتَذَكَّر مَصِيرَهُ وَمُنْتَهَاهُ؛ لِيَرَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهَلْ هُوَ شَاكِرٌ أَوْ كَفُورٌ. اهـ مُلَخَّصًا.

وَمَضْمُونُ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ يَرَى أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي قِرَاءَةِ السُّورَتَيْنِ فِي فَجْرِ الْجُمُعَةِ... (أنه لما كان هذا اليوم) يوم إِيجَادِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ وَيَوْمَ أَحْدَاثِهِ كُلِّهَا، إِيجَادًا مِنَ الْعَدَمِ، وَإِنْعَامًا عَلَيْهِ بِسُكْنَى الْجَنَّةِ، وَتَوَاجُدِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَلَقِّي التَّوْبَةِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّه، أَيْ: يَوْمَ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ حِسًّا وَمَعْنًى، فَنَاسَبَ أَنْ يُذَكِّرَ الْإِمَام بِقِرَاءَتِهِ سُورَةَ "السَّجْدَةِ" فِي فَجْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ قِصَّةِ خَلْقِ آدَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٧ – ٩]. وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، مِمَّا يَبُثُّ الْخَوْفَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، إِذْ لَا يُعْلَمُ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ، فَيَجْعَلُهُ أَشَدَّ حِرْصًا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَأَشَدَّ خَوْفًا مِنَ الشَّرِّ. ثُمَّ حَذَّرَ مِنْ نِسْيَانِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [السجدة: ١٤].

وَهَكَذَا فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى، يَرْجِعُ الْمُسْلِمُ إِلَى أَصْلِ وُجُودِهِ وَيَسْتَحْضِرُ قِصَّةَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ. وَكَذَلِكَ يَأْتِي فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ بِقِصَّتِهِ هُوَ مُنْذُ بَدَأَ خَلْقُهُ: مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ، وَيُذَكِّرُهُ بِالْهَدْيِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَيُرَغِّبُهُ فِي شُكْرِ نِعَمِهِ عَلَيْهِ، وَيُحَذِّرُهُ مِنْ جُحُودِهَا وَكُفْرَانِهَا. وَقَدْ بَيَّنَ لَهُ مُنْتَهَاهُ عَلَى كِلَا الْأَمْرَيْنِ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٤– ٥] . فَإِذَا قَرَعَ سَمْعَهُ ذَلِكَ فِي يَوْمِ خَلْقِهِ وَيَوْمِ مَبْعَثِهِ، حَيْثُ فِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، فَكَأَنَّهُ يَنْظُرُ وَيُشَاهِدُ أَوَّلَ وُجُودِهِ وَآخِرَ مَآلِهِ؛

فَلَا يُكَذِّبُ بِالْبَعْثِ. وَقَدْ عَلِمَ مَبْدَأَ خَلْقِهِ وَلَا يُقَصِّرُ فِي وَاجِبٍ، وَقَدْ عَلِمَ مُنْتَهَاهُ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحِكْمَةِ كَمَا تَرَى))[١].

إن هذه النظرة تعني أننا نتحول من دراسة النص –بوصفه مقروءًا ومجال تحليل أبنية وتراكيب ودلالات لفهمه وتفسيره– إلى مجال خطاب يؤّثر في الوجدان ويحرك المشاعر والضمائر نحو الهدى وطريق الصلاح والاستقامة، من خلال تذكير المسلم بقصة خلقه وغايتها ومنتهاها، بدءًا من التذكير بخلق أبيه آدم وتتابع نسله وبيان مآله ووعظه وتخويفه، على نحو ما ورد في سورة السجدة، وانتهاء باستحضار خلقه هو من نطفة وإعداده وإمداده، وبيان طريق سعادته أو شقائه على نحو ما ورد في سورة الإنسان. والتذكير الأول والثاني حدثان متكرران في صلاة فجر كل جمعة عندما يستنّ فيها الإمام بالتلاوة وفق السنة الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والملاحظ هنا أيضًا أن الخطاب القرآني يتكامل بأداء السورتين، رغم أن سورة السجدة تبدو وحدها كافية وشاملة في الإشارة إلى خلق آدم وخلق الإنسان عمومًا، لكن لا شك أن كل سورة لها معانيها وملامحها وأسلوبها الخاص المميز، ومن ذلك إجمال الإشارة إلى نعيم الجنة في السجدة في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [السجدة:١٧–١٩]، وهو ما فُصّل في سورة الإنسان في عدة آيات. ويتأكد لنا هنا أن خطاب القرآن معجز يؤدي بالبناء الواحد عدة مقاصد ويحقق أغراضًا مختلفة، وتتفاعل فيه وتتماوج أغراض السورة بلطف وانسياب معجب مع محاوره الخمسة وهي: التوحيد، والكون الدال على خالقه، والقصص القرآني، والبعث والجزاء، وميدان التربية والتشريع[٢]. فسورة السجدة –كسائر السور المكية– تعالج بأفكارها الفرعية وأسلوبها الخاص أصول العقيدة الإسلامية وهي: التوحيد، والكتب والرسل، والبعث والجزاء. والمحور الرئيس الذي تدور حوله السورة

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي: ٣٨٠/٨، ٣٨١.

(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي: ٥.

هو موضوع البعث بعد الفناء الذي جادل فيه المشركون كثيرًا، واتخذوه ذريعة للتكذيب[1]، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُون (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [السجدة: ١٠، ١١]؛ ولذلك جاء ذكْر البعث واستُدلّ عليه بكيفية بدء خلق الإنسان وتناسله وتنظيره بإحياء الأرض: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة: ٢٥- ٢٧]. وكما قيل في سورة السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾، قيل في سورة الإنسان: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾.

والخلاصة أننا بهذا ننتقل من ميدان تحليل السورة وتفسير نصها إلى مجال دراسة الخطاب القرآني وأسرار تلقيه، على نحو ما ينبغي أن يتم في موقف إعراب القرآن وتفسيره في مطلوب النحو، من ضرورة تطويره وتجاوزه بوعي وحكمة، دون شطط في خلط مستويات البحث العلمي.

(1) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ٢/٩٣٣.

الخاتمة:

من خلال معالجة هدَفَي البحث الرئيسين المتمثلين في مبحثيه (تقديم أنموذج عملي لما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين النحو العربي والنص القرآني بالتطبيق على سورة الإنسان وفق رؤية معرفية نصية، ومحاولة حل إشكال التعارض بين مطلوب النحو ومقتضى تحليل النص القرآني وتفسيره)، تأكّد لنا أن تقديم الأنموذج العملي وحل الإشكال في الفكرة الجوهرية التي يحملها عنوان البحث. ويمكننا أن نجمل التعليق على المسائل والقضايا التي تناولناها في النقاط الآتية:

أولًا: تبيّن لنا أن مطلوب النحو العربي عمليًّا ومن خلال أنموذجنا التطبيقي، يتمثل في ثلاثة جوانب هي: إعراب المشكل وما يحتمل أكثر من وجه، والاستشهاد والاحتجاج للاستعمال الوارد أو به، والنظر في القراءات متواترة وشاذة. وتوجيه القراءات المتواترة رأينا أنه لا يكفي فيه أن ننظر إلى إعرابها فقط، بل من المهم أيضًا محاولة تفسير اختلافها؛ للوصول إلى مناسبة كل واحدة منها لوجه من وجوه المعنى والبلاغة، دون أن يكون هناك تعارض. والقراءة الشاذة لها فائدة عملية في التحليل والتفسير. وتناول القراءات عمومًا بحسب هذه الرؤية من أوضح المواضع التي تجسد موقف الرواية في النحو التفاعلي في القرآن.

ثانيًا: تعدد وجوه الإعراب في جانب منه أثر من مطالب صنعة النحو وعمل النحاة، وهو مدخل ضروري للنظر في النظم والتفسير وتحليل النص، ما لم يكن ناشئًا عن الصنعة والتكلف. وتعدد التوجيه النحوي القائم على الثراء في فهم المعنى والاستجابة للبلاغة والإعجاز لا عيب فيه.

ثالثًا: مقتضى التحليل النصي للسورة وتفسيرها تمخّض عنه –وفق اجتهادنا وتطبيقنا– ما يأتي:

– تقسيم مضمون السورة إلى أقسام محددة، مع بيان ما في كل قسم من مناسبة عناصره ومكوّناته –على وجه الإجمال– لهذا المضمون وللسياق عمومًا. والمناسبة مفهوم كلي للاتّساق والانسجام يشمل ما بين بعض أجزاء السورة وبعض، كما يشمل سياق ما قبل السورة وما بعدها.

- إلقاء الضوء على ثلاثة من المكوّنات الأساسية في النص وبيان فاعليتها بصورة تُعنى بالتمثيل أكثر من عنايتها بالتفصيل، وهي: المكوّن النحوي والمكوّن المعجمي والمكوّن البلاغي.
- محاولة اكتشاف ما وراء المكوّنات الأساسية المعروفة من ظواهر مهمة لا تبدو في الغالب إلا بالتحري والاستنباط. وقد اتضح لنا في سورة الإنسان من هذه ثلاث ظواهر مهمة أشرنا إليها هي: أثر "كان" بين التطريز الإعرابي ودلالة السياق، ومتشابه السورة، وخطابها المشترك مع سورة السجدة. وهذه الظاهرة الأخيرة أراها محاولة جديدة للانتقال في الدراسة النصية القرآنية من مجال تحليل السورة إلى مجال الخطاب، من منطلق معطيات التراث نفسه.

رابعًا: لعل سؤالًا ختاميًّا يُطلّ ويفرض نفسه: إذا كان مطلوب النحو في تحليل النص قد اتضح الفرق بينه وبين التفسير، فما الفرق إذن بين التفسير والتحليل النصي للسورة، إذا جعلنا هذا التحليل النصي مرادفًا لما يمكن أن نصفه أو نسميه بنحو النص أو لسانيات النص القرآني؟

يمكننا أن نسهم في الإجابة عن هذا بأن نقول إن التفسير بالطبع أعم من لسانيات النص القرآني وهو معروف ومحدد فيما يسمى بعلوم القرآن، أما لسانيات النص القرآني فهي رؤية لغوية أقرب إلى دراسة الأسلوب، وهذا معناه أنها دراسة محورها اللغة وعناصرها الجمالية وما يقع على تخومها وحدودها.

المصادر والمراجع

- طبعة المصحف المذيّلة بالتفصيل الموضوعي مع استخدام الترميز بالتدرج اللوني للدلالة على أقسام المواضيع، وبهامشه تفسير كلمات القرآن، إعداد مروان نور الدين سوار (دار الفجر الإسلامي – دمشق وبيروت – ط٤ – ٢٠٠٩).
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤)، وطبعة دار ابن كثير، بتحقيق الدكتور محمد صادق درويش (بيروت ودمشق وإسطنبول – ط١– ٢٠٢٣).
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي (دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٩٥).
- الإعجاز البياني في تحولات النظم القرآني للدكتور عبد الله الهتاري (الهيئة العالمية لتدبّر القرآن الكريم – الدوحة – ط١ – ٢٠٢٤).
- إعراب القراءات الشواذ للعكبري، دراسة وتحقيق محمد السيد عزوز (عالم الكتب – بيروت – ط٢ – ٢٠١٠).
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، تأليف عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي، إشراف ومراجعة د. عبد العزيز بن عبد الفتاح (مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي بجدة ودار الغوثاني للدراسات القرآنية – ط٢– ٢٠١٨).
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار والأستاذ عبد الحليم الطحاوي (المكتبة العلمية – بيروت).
- البنية العاملية ومنازل الكلام في العربية، نحو لسانيات لتحليل الخطاب القرآن للدكتور محمد الخطيب (مركز إحياء للبحوث والدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠٢٢).
- البيان في روائع القرآن للدكتور تمام حسان (عالم الكتب – القاهرة – ط٢ – ٢٠٠٠).

– التبيان في إعراب القرآن للعكبري، تحقيق علي محمد البجاوي (دار الجيل – بيروت – ط٢– ١٩٨٧).

– التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" لمحمد الطاهر بن عاشور (الدار التونسية للنشر – ١٩٨٤م).

– التعبير القرآني، تأليف الدكتور فاضل صالح السامرائي (جامعة بغداد – بيت الحكمة – ١٩٨٨).

– تفسير البحر المحيط لأبي حيان:

- طبعة دار الفكر – بيروت – ١٩٩٢.
- طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٣.

– تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، (مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١– ٢٠٠٠).

– تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (وزارة الأوقاف القطرية – ط٣– ٢٠٠٧).

– التفصيل في إعراب آيات التنزيل، للدكتور عبد اللطيف الخطيب والدكتور سعد مصلوح ورجب العلوش (مكتبة الخطيب للنشر والتوزيع – الكويت– ط١– ٢٠١٥).

– التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، تأليف الدكتور فاضل صالح السامرائي (دار ابن كثير – ط١ دمشق وبيروت – ٢٠١٦م).

– ثابت الإيقاع متنوع الوقع، للدكتور سعد مصلوح: رسالة في بلاغة التشكيل الصوتي للتفعيلة العروضية (عالم الكتب – القاهرة – ط١– ٢٠٢٣).

– الجامع لأحكام القرآن للقرطبي= تفسير القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (دار الكتب المصرية – ط٢ – ١٩٦٤م).

– الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم (دار الشروق – بيروت – ط٤– ١٤٠١هـ).
– الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي (دار المأمون للتراث – دمشق وبيروت – ط٢– ١٩٩٣).
– الخطاب القرآني وأسرار التلقي، للدكتور عبد السلام المسدي (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات – الدوحة – قطر – ط١ – ٢٠٢٢).
– الدر المصون في علم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد الخراط (دار القلم – دمشق).
– دلائل النظام لعبد الحميد الفراهي (المطبعة الحميدية –١٣٨٨هـ).
– روح المعاني لشهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية (دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤١٥ هـ).
– صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني (المكتبة العصرية – صيدا وبيروت – ٢٠١٠).
– عقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي بشرح شرَف المدرّسين عبد الرحمن بن عيسى الشهير بالمرشدي مفتي مكة، تحقيق الدكتور عيسى العاكوب (دار نينوى – دمشق – ط١– ٢٠١٧).
– فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، صححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب (دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ).
– في العربية واللسانيات، أسس ومقاربات، للدكتور عبد السلام حامد (دار كنوز المعرفة – عمّان – ط١– ٢٠١٨).

– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، وبذيله أربعة كتب: الأول: الانتصاف للإمام أحمد بن المنير السكندري، الثاني: الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، للحافظ ابن حجر العسقلاني، الثالث: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف، الرابع: مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف، للشيخ محمد عليان المذكور (دار الريان للتراث – ط٣ – القاهرة – ١٩٨٧).

– لسان العرب لابن منظور (دار المعارف – القاهرة – د.ت).

– المحاور الخمسة للقرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي (دار الشروق – القاهرة – ط٣ – ٢٠٠٦).

– المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني (وزارة الأوقاف المصرية – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – ١٩٩٩).

– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين (مطبوعات وزارة الأوقاف – قطر – ط٢ – ٢٠٠٧).

– معاني النحو، للدكتور فاضل السامرائي (وزارة التعليم العالي – جامعة بغداد – ١٩٨٩).

– (وطبعة دار الفكر – عمان – ط٥ – ٢٠١١).

– المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم، للدكتور محمد حسن جبل (مكتبة الآداب القاهرة – ط١ – ٢٠١٠).

– معجم الدوحة التاريخي. https://www.dohadictionary.org

– معجم القراءات، تأليف الدكتور عبد اللطيف الخطيب (دار سعد الدين – دمشق – ط١– ٢٠٠٢).

– معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، للدكتور أحمد مطلوب (مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – ٢٠٠٧).

– المعنى في علم الكلام والتفسير والنقد العربية القديم، رؤية نحوية، لعبد السلام حامد (حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة ٤٧٤، الحولية ٣٧، ٢٠١٧).

– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح – القاهرة – د. ت).

– مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي (دار القلم – دمشق – ط٥ – ٢٠٠١).

– مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي (دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط١ – ٢٠٠٢).

– ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق سعيد الفلّاح (دار الغرب الإسلامي – تونس – ط٥– ٢٠١٣).

– نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي (دار الشروق – القاهرة – ط١٠– ٢٠٠٨).

– نشر القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق الدكتور أيمن رشدي سويد (دار الغوثاني للدراسات القرآنية – إسطنبول ودمشق وبيروت – ط٣ – ٢٠٢٣).

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد – الهند – ط١، ط٢ بين سنتي ١٩٧٥ و١٩٨٦).